سيرة ذاتية

على الجسر

بين الحياة والموت

البورتريه/للفنان جمال قطب

د. عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطئ



عائشة، عبد الرحمن (بنت الشاطئ)
١٩١٣ ـ ١٩٩٨ .
على الجسر بين الحياة والموت/ عائشة
عبدالرحمن (بنت الشاطئ مستعار) . ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠ .
٢٠٨ ص ؛ ٢٤سم.
تدمك ١ ٦٤٣ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية القصيرة.
أ ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧١٨/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -643 - 1
ديوى ٨١٣,٠١

على الجسر

بين الحياة والموت

د. عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

الإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

على الجسر

«وتجلت فينا ولنا وبنا، آية الله الكبرى الذى خلقنا من نفس واحدة فكنا الواحد الذى لا يتعدد، والفرد الذى لا يتجزأ. وكانت قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا، وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر!».

على الجسر، ما بين الحياة والموت

أقف حائرة ضائعة فى أثر الذى رحل:

أطل من ناحية، فأجده ملء الحياة

وألمح طيفه الماثل، فى كل من حولى، وما حولى من معالم وجودنا المشترك، وأتتبع آثار خطاه على دربنا الواحد، دفاقة الحيوية سخية العطاء..

وأميز أنفاسه الطيبة الزكية، فى كل ذرة من هواء أتنفسه..

وأصغى إلى نجواه:

فى الصمت وفى الضجيج

فى سكون الخلوة وفى صخب الزحام

وأطوف بأرجاء عالمنا الرحب الذى ضمنا معا، فلا أتصور أنه الراحل الذى لا يثوب!

* * *

وعلى الجسر،

ألتفت إلى الناحية الأخرى:

حيث المصير المحتوم لكل حى، لا عاصم منه ولا مفر

فأدرك بملء وعيى أنه عبره قبلى..

إلى نهاية الشوط وغاية المطاف

واسترجع، بيقظة مروعة ومرهفة، خطوته الأخيرة على المعبر:

إذ يستوعب الوجود كله فى نظرة ثاقبة،

ويستجمع قواه ليجتاز المرحلة الباقية،

فى بهاء فروسيته وعزة كبريائه وجلال إيمانه

مناضلا، حتى النفس الأخير، عن الحق والخير

ومحتملا، حتى النفس الأخير، أمانة الإنسان

* * *

وبملء وعيى كذلك،

أستعيد المشهد الفاجع للزائر المرهوب..

ألم يدارنا مقنعا مستخفيا،

لاتراه عين ولا يدركه حس

فلم يتلبث غير لحظة خاطفة..

أنجز فيها مهمته بأسرع من لمح البصر

ثم انطلق بعدها يتابع جولته المرسومة فى لوح القدر لحصاد الآجال..

بعد أن ترك بصمته على ركن دارنا

وأسدل قناعه الحزين على الجسد الراقد:

ملاءة رقيقة بيضاء...

ما أهونها حاجزا بين الموت والحياة!

وإن لم يعرف الأحياء ما يدانيها كثافة وصلابة، وغلظا وثقلا..

* * *

وأتتبع المشهد حتى نهاية الرحلة بمقبرة القرية..

فى الحفرة التى لبثت هنالك مفتوحة تنتظر،

ريثما واروا فيها جثمانه الدافىء

ثم سدوها بحفنة من طين وحصى ورمال..

هى كل ما بينى وبينه حين ألم به زائره..

وهيهات هيهات المزار!..

* * *

أستعيد هذا كله،

وأستحضره وأسترجعه، بيقظة واعية..

فأترنح على الجسر:

ضائعة الحيلة مبعثرة الخواطر ممزقة الرؤى

ويختلط فى سمعى صدى النعى المصمى بنجوى الطيف الماثل..

وتمتزج فى صدرى ريح العدم، بعبير الأنفاس الطيبة

للراحل المقيم

ويتصادم فى وجدانى نشيج الباكين وأنين المحزونين

وتأبين الراثين، ودعاء المعزين، بإيقاع النغم الشجى الساحر

للصوت الحبيب..

وتتزاحم على الأفق من حولى مواكب المشيعين والمودعين،

متداخلة فى مشاهد حركاته ولفتاته، وجولات نضاله ومواقف بطولته، ومجالس أستاذيته وندوات مدرسته!

وتتماحى الحدود والفواصل:

بين الحاضر المفجع،

والماضى السعيد الحافل،

والغد المحجب فى ضمير الغيب، المطوى فى غيابة المجهول..

وتتداخل الأبعاد والآماد،

حيث أقف على الجسر، ما بين الحياة والموت

* * *

وما باختيارى أن تبطىء خطواتى عليه..
ولا بإرادتى تخلفت عمن عبر
ولا علم لى بموضع قدمى فى الخطوة التالية
قصارى ما أعلمه هو أن «كل نفس ذائقة الموت»
«وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا، وما تدرى نفس بأى أرض تموت»

* * *

وإلى أن يحين الأجل..
سأظل معلقة بين الحياة والموت،
لا أدرى إلى أيهما أنتمى، وعلى أيهما أحسب؟
وملء مسمعى صدى النعى مختلطا بنجوى الطيف الماثل..
وعلى دربنا المتألق بنور حبه وكرم سجاياه، تلوح بصمة الزائر الرهيب الذى تسلل إلى دارنا خفية فى وضح النهار فلم يتلبث غير لحظة خاطفة، ثم مضى عنا إلى حين..
وفى أرجاء دنيانا التى تزدهى بملامحه وتزهو بآثاره وتتشبث بذكراه،
تبدو معالم الجسر المارد العجيب الممتد بين الوجود

والعدم..

يتحدى أعتى القوى وأمنع الحصون

وتتطاول أبعاده فتطوى الآفاق من بر وبحر وهواء

وفضاء..

وإن بدا للغافلين من تهاويل الأحلام، وأفانين الوهم

والخيال..

* * *

إلى أن يحين الأجل،

سأبقى محكوما على،

بهذه الوقفة الحائرة على المعبر

ضائعة بين حياة وموت

أنتظر دورى فى اجتياز الشوط الباقى،

وأردد فى أثر الراحل المقيم:

عليك سلام الله إن تكن

عبرت إلى الأخرى

فنحن على الجسر..

مصر الجديدة

مارس ١٩٦٦

قبل أن نلتقي..

الشعــر

على دربين متباعدين،

بدأت خطواتنا من قبل أن نلتقى

ولم يكن هناك أى احتمال للقاء..

فأحد الدربين يمضى بمعزل عن الآخر..

دون أن تبدو بينهما على مد الأفق نقطة اتصال

لا فى الحقيقة والواقع،

ولا فى أحلام اليقظة ورؤى المنام.

تباعد ما بيننا زمانا،

وتباعد بيننا كذلك المكان..

وحين بدأت أخطو على دربى،

كان هو قد قطع شوطا طويلا فى طريق لا يحتمل أن

أطرقه،

وليست لدى أدنى فكرة عنه،

ولو على سبيل التصور أو الوهم..

وهناك،

على دربه البعيد عن مهد مولدى،

وقبل أن أخرج إلى الدنيا..

كان هو قد بدأ يقيم بناء حياته

دون أن يخطر بباله احتمال لتغيير جوهرى أو تبديل وتعديل..

ودون أن يتمهل فى انتظار مالم يكن يتوقع

وهكذا بدأنا:

تفصلنا آماد وأبعاد،

كل فى طريقه وعلى دربه..

لا يدرى عن الآخر شيئا من قريب أو بعيد.

ولعل أحدهما لو سئل عن الثانى، لهز رأسه متسائلا فى حيرة وعجب

من يكون؟

* * *

كيف سارت بى الحياة قبل أن ألقاه؟..

فى ذاك الفصل من قصتى، أعود إلى طفولتى الباكرة،

فأسترجع من ذكرياتها مالم تطوه الأيام والليالى فى متاهة النسيان،

وقد تبدو تلك الذكريات بعيدة عن سياق الفصول

التالية من قصتنا، غير أنى أريد لألتقى بتلك الصبية التى

حملت ملامحى الأولى، وأميز فى أثار خطاها، تلك المرحلة

التى أسلمتها إلى دربه من حيث لا تدرى!

* * *

وأنا أكتب هذا، بعد أن تمت القصة فصولا، على

مسرح الدنيا..

ولست أدرى ما إذا كنت فيما أروى من فصلها الأول،

متأثرة بما أعرف من بقيتها..

غير أنى أحاول قدر ما أستطيع، أن أستعيد ماضيًا كما

كان، حريصة على ألا تتداخل المشاهد وتختلط الذكريات،

فى قصتنا التى ما سمع الزمان بمثلها من قبل..

وهيهات أن تتكرر أبد الدهر..

حين بدأت أعى خطواتى على الدرب، كنت فى ملعب
طفولتى على شط النيل بمدينة دمياط العريقة، حيث يقوم
بيت جدى لأمى «الشيخ إبراهيم الدمهوجى الكبير» مطلا على
النهر، عتيقا شامخا تضرب أسسه الصخرية فى ماء النيل،
ويمتد الأفق أمامه، من ناحيتى الشمال والغرب، فسيحا
رحبا إلى غير مدى..

وعلى حافة النهر، أمام الدور الأرضى، شرفة بعرض
البيت، تفضى من جانبيها إلى الماء بسلالم من حجر، تتكشف
درجات منها تباعا عندما ينخفض مستوى النهر فى موسم
التحاريق، ثم تغمرها مياه الفيضان فلا يكاد يبدو منها غير
أطرافها العليا..

والمدخل الشمالى للشرفة، يفتح بباب على رصيف عريض

ممتد إلى مسافة طويلة، مرسى للسفن الشراعية حين تئوب من رحلاتها عبر البحر المتوسط، إلى بلاد الشام وقبرص والأناضول، فيشدها الملاحون بسلاسل إلى أوتاد حديدية مثبتة على الرصيف، ويمضون بعد تفريغ حمولتها لقضاء أيام مع أهلهم بالمدينة وشطوطها.

أما المدخل الآخر للشرفة، فكان بابه يفتح على منطقة من الماء قريبة الغور، محجوزة بجدران خشبية ساترة، اعتادت سيدات الأسرة الاستحمام فيها، إذ تتحول فى موسم التحاريق إلى حمام بحر لحريم البيت، عندما يجور الماء المالح على النيل إلى مسافة أميال من المصب، يبدو النهر خلالها كأنه خليج ممتد من البحر المالح.

وخلف الشرفة، قاعة كبرى لاستقبال الضيوف والتجار المتنقلين ما بين مصر والشام، تعلوها طبقات ثلاث، بينها أدوار مسحورة، يقيم فيها معتوقو الجد، وقد بلغوا من الكبر عتيا فما عادوا يستطيعون أن ينفصلوا عن البيت الذى أفنوا فيه شبابهم، ولا كان فى استطاعتهم أن يبدأوا حياة جديدة بعد أن نالوا وثيقة العتق من جد الأسرة قبيل وفاته.

وما كنت فى تلك السن الغضة أدرك شيئا عن مأساة

الرق، وإنما فتحت عينى وأنا أرى «داده حليمة» ترعى أطفال الأسرة، و«العم مبروك» يقوم على خدمة الضيوف ويقضى حاجات البيت الكبير من السوق، حتى مات فى شيخوخته العالية فدفن فى جانب منعزل من مقبرة العائلة، خصصته لمعتوقى جدها الشيخ، وأخذ ولده مكانه لمدى سنين، ثم خرج إلى الدنيا يلتمس فرصته، وبقيت «داده حليمة» ترعانا فى شيخوختها الواهنة وتسلينا بحكايات وعتها من تاريخ الأسرة

* * *

فى الطابق الثانى من هذا البيت القديم، كان منزل جدى أمى، وقد أدركتهما بعد أن علت بهما السن، فكان على أمى أن ترعاهما موزعة وقتها وجهدها بين بيتنا الخاص، وبين منزل الجدين.

واعتدت أن أصحبها إلى البيت الكبير كل يوم، فتتركنى «لداده حليمة» تشاغلنى بحكاياتها، بعد أن توصيها ألا تدعنى أغيب عن بصرها. غير أنى سرعان ماكنت أفلت من العجوز الطيبة بحيلة أو بأخرى، وأتسلل إلى النهر لألهو وألعب مع صواحبى من بنات الجيرة، فإذا حان موعدانصراف أمى إلى بيتنا، تعللت برغبتى فى البقاء لخدمة الجدين..

وانتظرت حتى تتصرف أمى، لأعود إلى ملعبى على شط النهر.
لا أبرحه حتى يحين المساء.
وكثيرا ما كنت أجدنى وحدى مع الفضاء الطليق،
فيطيب لى أن أتخذ لى مجلسا فى إحدى السفن الشراعية
الراسية على الشط، أصغى إلى نجوى النهر، وأجتر ما حكت
لى العجوز الطيبة من ذكرياتها عن البيت الكبير. ولم يكن
يشوب متعتى سوى هاجس من القلق، أن تعلم أمى أننى
هناك، وقد كانت تبدو مذعورة كلما سمعت عرضا أنى
تسللت إلى النهر، وإذ أعياها أن تصدنى عنه بالزجر
والتأنيب، احتالت على بتخويفى بحكايات رهيبة عن أفاعيل
جن الماء التى تخرج أحيانا من كهوفها السفلية فى قرار
القاع، وتطفو قريبا من السطح، تلتمس صيدا لها من أبناء
الأنس! وروت لى فيما روت، حوادث بعينها عمن سحبتهم
جن الماء على غرة، وغاصت بهم إلى القاع وحكمت عليهم
بالعيش هناك، فما عادوا إلى دنيانا بعد ذلك قط.
وأحسب أننى أدركت أنها إنما تتفنن فى اختراع تلك
الخرافات الرهيبة لكى تصدنى عن النهر، غير أن الذى رابنى
من أمر أمى، أنها كانت تتحدث عن أفاعيل جن البحر بصوت

يفيض لوعة وشجنا، وربما غلب عليها الانفعال فلم تملك.
أن تمسك دموعا كانت تترنح فى مقلتيها، حتى كدت أصدق
حقا كل ما كانت تحكيه، وطاردتنى فى منامى أحلام مفزعة،
كنت أشهد فيها جن البحر يطفو النصف الأعلى منها على
الماء،

آدمية الخلقة ساحرة الجمال، وتتلبث هنالك فترة فى انتظار
الصيد، فاذا ظفرت به سحبته ودارت دورة لتغوص فى الماء،
وعندئذ يبدو لى النصف الأسفل من جسدها، بزعانفه
وحراشيفه وذيله!

وهجرت ملعبى حينا، شعر خلاله بالوحشة والتعاسة،
وكنت كلما تمثلت مجلسى على ثبج الماء، وسمعت صبية الحى
وهم يتواثبون إلى الشط، تساءلت عما إذا لم يكن لهم أمهات
مثل أمى، يعرفن مثل ما تعرف عن أفاعيل جنيات البحر،
ويحاولن حماية الصغار منها!؟

* * *

حتى عرفت من «داده حليمة» سر المأساة التى روعت
أمى فى صباها، فشحنت وجدانها بالخوف من النهر:
قبل أن أولد بسنين، بل قبل أن تشب أمى وتتزوج،
نزلت والدتها إلى شط النهر ذات صباح، ثم لم تعد بعد ذلك
قط!
سحبتها أذرع الموج الهادر، وتاهت صيحة استغاثتها
فما كاد أهلها يميزونه من هدير الماء، حتى كانت قد غاصت
إلى القاع!
ومن عجب أن علمى بهذه المأساة وما أعقبها من ذيول
فاجعة، لم يقهر حبى للنهر! بل لعله شدنى إليه بوثاق لم
يكن فى طاقتى أن أتحرر منه! وما لبثت أن عدت لى
مكانى الذى هجرته حينا، أحاول أن أتمثل منه المأساة التى
لم أكن من شهودها، وخيل لى، أننى أستطيع أن أصغى فى

هدير الموج إلى صدى بعيد من صوت إنسى يتصاعد من قاع النهر، وأن أميز فى مياهه تلك الدموع التى ذرفتها أمى حين وقفت فى الأمس البعيد على الشط تنادى والدتها الغريقة وتضرع إلى النهر أن يردها لها فيرتد إليها صدى ندائها وضراعتها، مجهدا ممزقا ضائعا..

وأدركت على صغر سنى، سر الخوف الذى كان يجتاح وجدان أمى كلما أحست حبى للنهر وتعلقى به. وأدركت كذلك سبب ارتباطها العجيب بجديها، وقد عاشا بعد المأساة يجتران ذكرياتها المشحونة بالأسى واللوعة، ويطلان صباح مساء على مسرحها الأليم!

ومن ذلك الحين، زاد تعلقى بالبيت الكبير واتجهت إليه بكل عواطفى الغضة، ففيه تربت أمى بعد غرق والدتها، وفيه يقيم جداها الثاكلان اللذان تشبثا بها صورة حية لفقيدتهما، وعلى حافة النهر هناك كان المسرح الذى شهد مأساة غريقة تربط ثلاثة أجيال من الأسرة..

* * *

على ذلك الأفق الشجى الحزين، تفتح إدراكى وأنا أخطو إلى عامى الخامس..

ومن تلك الكأس المترعة بالشجن المر والحنان الدافق
والعاطفة المرهفة، عرفت مذاق الحياة أول ما وعيت..

ومن تلك الشخوص الحية التى تقف بالأطلال، بدأت ألتقط خيوطا خفية من ذيول المأساة، ثم أتسلل إلى النهر

كلما وجدت سبيلا إلى الإفلات من الرقابة المفروضة على، فأمضى الساعات الطوال صامتة على الشط، أنسق ما جمعت من خيوط وأحاول أن أنسج منها ما غاب عنى من مشاهد، فى تأمل مستغرق وشجو مريح!

ودون أن أدرى، كان والدى قد بدأ يخطط لى طريق الحياة، فى ذلك الوقت الذى شدتنى فيه جواذب لا تقاوم، إلى النهر بكل ما يلم به من أرواح وأشباح، وإلى البيت الكبير بكل من فيه من أشخاص وأطياف..

ووالدى لم يكن من أبناء دمياط.

وإنما ولد فى قرية «شبرا بخوم» من ريف المنوفية، وأمضى بها طفولته يحفظ القرآن الكريم ويجوده، ثم أغراه

عالم القرية «الشيخ يوسف شلبى الشبرا بخومى» يطلب العلم، فنزح إلى العاصمة مع عدد من رفاقه المجاورين، وتابع الدرس حتى نال شهادته التى عين بها مدرسا بمدرسة دمياط الابتدائية الأميرية للبنين، قبل أن أولد ببضع سنين..

ويقال إنه حين وفد على البلدة، لفت الأنظار بأناقة ملبسه ومرونة تفكيره، وحيوية شخصيته، غير أنه مالبث أن تطور تطورا حاسما، متأثرا، فيما أرجح، بالميراث الروحى للبلدة العريقة، تتألق ذكرياته فى مساجدها العامرة التى تطيف بالبلدة من أطرافها، مثوى لشيوخ من التابعين

المجاهدين، وأولياء الله الصالحين، رضى الله عنهم:

ففى أقصى الطرف الشرقى، على حافة بحيرة المنزلة عند غيط النصارى، يقوم ضريح «سيدى شطا» التابعى، يقابله عند أقصى الطرف الشمالى، على حافة البحر المتوسط، ضريح «سيدى الجربى»

وعند أقصى الطرف الغربى، ضريح «الشيخ على الصياد» يقابله من ناحية الجنوب، ضريح سيدى «الشيخ المظلوم».

وعند باب المدينة البحرى، يقوم جامع «الشيخ المدبولى» الذى ظل لمدى قرون، مدرسة لعلوم الدين، إلى أن أنشىء المعهد الدينى فى «جامع البحر».

وكانت أشعة من السنا، تفيض من تلك المساجد العامرة والأضرحة المباركة، فتضفى على أفق البلدة العريقة جوا من الجلال الروحى، هو ما أظنه جذب والدى إلى طريق التصوف، فأوغل فيه إلى المدى الذى جعله ضاق بالتعليم العصرى فى المدرسة الابتدائية، فسعى سعيه حتى نقل منها إلى المعهد الدينى فى جامع البحر، حيث أخذ مكانه بين شيوخ المعهد المبجلين، فى تلك البيئة المحافظة ذات التراث الروحى..

وتزوج أمى، ولعل الذى زكاها لديه، دون غيرها من بنات دمياط، أنها حفيدة الشيخ الدمهوجى الذى كان شيخا للجامع الأزهر..

* * *

وسمعت فيما سمعت من أخبار الأسرة قبل مولدى، أن أبى تمنى عندما حملت أمى جنينها الأول، أن يهبه الله غلاما زكيا يتلقى ميراث البيت من علوم الدين، فلما بكرت أمى بأنثى، تلقاها بما يليق بمثله من رضى بما أعطى الله تعالى حتى إذا حملت بى أمى ووضعتنى بنتا ثانية، لم يضجر بى والدى، وتلك إرادة الله، بل وهبنى للعلم منذ وضعتنى أمى فى المهد، وسمانى «عائشة» تفاؤلا باسم أم المؤمنين رضى الله عنها، وكنانى «أم الخير»

ولست أدرى ما إذا كان والدى قد بدأ يمدنى لما وهبنى له، فى تلك المرحلة الأولى التى يفوتنى وعيها، اللهم إلا بعض ذكرى تائهة مبهمة لأوقات كان والدى ينتزعنى فيها من ملعب حداثتى، ويلزمنى من قبل أن تفك عنى تمائم الصبا، صحبته فى مجلسه بالبيت، أو فى مكتبه بجامع البحر، وكان يسميه الخلوة. ولعلى التقطت فى تلك المرحلة المنسية، بعض الآيات والسور القصار،

من طول ما سمعته يتلو القرآن الكريم. والتقطت معها كلمات مما كان يتذاكره مع زملائه وتلاميذه من علوم الإسلام..

ولعلى كذلك تلقيت مبادىء القراءة والكتابة فى ذلك العهد الذى يسبق وعيى، غير أن دراستى الجادة المنظمة، لم تبدأ إلا صيف عام ١٩١٨ وأنا فى نحو الخامسة من عمرى!

* * *

استقبلنا ذلك الصيف البعيد، وأبى يستعد للرحيل بنا إلى قريته «شبرابخوم» لقضاء عطلة الصيف مع أهله هناك، على مألوف العادة فى كل صيف كما سمعت..

وشعرت بالضيق النفسى تجاه هذه الرحلة، لفرط شغفى بالنهر وتعلقى بالبيت القائم على شطه. وقد تضاعف ذلك الضيق حين لاحظت على أمى أنها تضيق كذلك بتلك الرحلة الموسمية المفروضة عليها، حيث تقضى ثلث العام تقريبا، بعيدة عن جديها أحوج ما يكونان إلى رعايتها، وتعيش فى بيئة ريفية تختلف تماما عن بيئتها الحضرية التى ألفتها وشبت فيها.

غير أن السفر كان يعدنى مع ذلك بطريف جديد، فما لبث إحساسى بالضيق أن توارى فى أعماقى وغاب، بمجرد أن عبرنا النهر فى (الفلوكة) من مرساها عند بيت جدى، إلى محطة السكة الحديدية المواجهة للبيت، على الضفة الغربية للنهر. ومن

هناك ركبنا قطار الصباح، وانطلق يجرى بنا وأنا مفتوحة العينين، أطل من نافذته على ما بدا لى يومئذ من عجيب المشاهد وطريف المناظر، وكأنى أتفرج من الثقب السحرى لصندوق الدنيا، أو صندوق العجب كما كنا نسميه..

وفى محطة بنها، نزلنا من القطار الكبير ولبثنا على الرصيف فترة طالت، حتى جاء قطار آخر ضئيل زرى المنظر، سار بنا متعثرا وئيدا حتى حطنا فى بلدة «ميت بره» حيث كان أخوال أبى فى انتظارنا..

وقد استرحنا فى ضيافتهم بقية النهار، وفى المساء أسرجوا لنا حمارين، حملانا عبر درب ضيق مترب وسط الحقول، إلى دار أبى فى القرية.

وكان أهل الدار قد تجمعوا لاستقبالنا، فلما نقلت بصرى بينهم، جذبنى إليهم نداء الدم، وإن بدوا لى فى اللقاء الأول غرباء. والرحلة إليهم كانت طويلة شاقة، والسفر قطعة من العذاب، إلا أنى تمهلت عند مدخل الدار حتى انتهت تحيات الاستقبال، مشوقة إلى أن أنطلق إلى الخارج كى أكتشف ذلك العالم الجديد.

ودنوت من طفلة فى مثل سنى، من بنات عمى، فرجوتها أن تصحبنى فى جولة بالقرية، لكنها أمهلتنى حتى يصبح الصباح، إذ ليس من المسموح لنا أن نخرج من الدار وحدنا بعد

غروب الشمس! وفيما كنت أحاول إقناعها بمصاحبتى، خرج جدنا من منظرة الرجال، فأنكر وقوفنا بالدهليز وقد حان وقت العشاء.

وخطوت فى بطء إلى فناء الدار، حيث لمحت أكداس الحطب مكومة قرب فرن عجبت لموضعه داخل البيت، ثم ازداد عجبى وأنا أرى المواشى فى زريبة مفتوحة على الفناء، وإلى جانب الزريبة صفٌّ من القاعات المظلمة، سألت عنها فقيل لى إنها مخصصة لنوم العائلة فى الشتاء!

ونادتنى أمى من فوق، فأسرعت إليها لأراها قد أخرجت من أمتعتنا ملاءات نظيفة بيضاء، فرشتها على سرير من حديد أسود باكر من نحاس صدىء، فى قاعة فسيحة مفروشة بحصير يبدو جديدا. وفى قاعة جانبية، أعدت لنا حشايا جلسنا فوقها حول صينية عشاء يحملها كرسى قصير من الخشب، وفى زاوية من القاعة كان هناك طست وإبريق من نحاس للاغتسال. وفوق قاعدة النافذة البحرية، وضعت صينية مستديرة فيها ثلاث قلل للماء، غطتها أمى بقطعة من شاش أبيض.

ذلك كان كل أثاثنا فى دارنا الريفية..

وظننت أنى لن أستطيع النوم، مع ذلك التغيير الطارئ على نسق حياتنا المألوفة فى الحضر، غير أنى لم أكد أرقد فى حضن

أمى، حتى نمت ملء الجفون، بحيث لم أشعر بوالدى حين طلع إلى مسكننا، بعد انتهاء السهرة فى منظرة الرجال..

* * *

وأصبح الصبح، فازدردت طعام الإفطار على عجل، وأنا أترقب اللحظة التى يخرج فيها أبى، لكى أنطلق مع «أمينة» بنت عمى، فى الجولة المؤجلة من المساء الذى فات..

غير أنى فوجئت بأبى يصحبنى إلى كُتّاب القرية، حيث أسلمنى هناك إلى «سيدنا الشيخ مرسى» ليحفظنى القرآن الكريم، وانصرف بعد أن اتفق على أن أنتظم فى الكتاب، ستة أيام من الأسبوع، من مطلع الشمس إلى قرب صلاة العصر!

وأذكر أن سيدنا ترفق بى فى اليوم الأول، فلم يرهقنى بتلاوة أو كتابة، وإنما اكتفى بأن أجلسنى إلى جانبه على حصير خشن، حيث أمضيت الساعات الست أحدق فى زملائى الصغار وهم يتتابعون على سيدنا واحدا بعد الآخر، فيتلو كل منهم اللوح الذى حفظه، ويكتب اللوح الجديد. فإذا تعثر فيما يتلو أو أخطأ فيما يكتب، زجره الشيخ مرة ومرتين، فإذا كانت الثالثة، أمر غلاما فأمسك بساقى الصبى المخطئ، وأهوى سيدنا على قدميه ضربا بعصا ملفوقة من طرفها!

يومها، رجعت إلى أمى مخطوفة اللون والقلب، فتلقتنى فى حضنها بحنان، وهى تدعو الله أن يفتح على، ويعيننى على

احتمال التجربة فى شدتها الأولى، وقد خفَّ عنى بعض الرعب، حين سمعت أمى تؤكد لى أن سيدنا لن يضربنى أبدا بفلكته!

وعكفت أمى بقية يومها، تخيط لى كيسا من القماش أحمل فيه لوحى الصفيح وقلمى الغاب، وتجهز بعض الفطائر جافة، أتبلع بها فى ساعات الكتاب..

* * *

ولمدى شهور الصيف الأربعة، كانت ساعات الصباح تحبسنى فى الكتاب، وبقيت لى سويعات الأصيل أنطلق فيها إلى الحقول، وقد أحببت القرية وأهلها، وطاب لى العيش فيها على خشونته، فكان ذلك مما هون على وحشة فراقى لبلدتى دمياط.

وكنت أتصور، إننى بعودتى إليها بعد انتهاء العطلة الصيفية، أرجع إلى ملعبى على شط النهر، غير أن والدى كان قد قرر أن أبدأ من ذلك الموسم، تعلم المبادئ الأولية لعلوم العربية والإسلام، وألزمنى أن أصحبه إلى مكتبه فى جامع البحر، حيث أعكف على حفظ ما لقنى من دروس، فى الأوقات التى يكون فيها مشغولا بالتدريس لطلابه.

وتكررت رحلتنا إلى القرية فيما تلا من عطلات الصيف، حيث أتممت حفظ القرآن الكريم، إلى جانب ما كنت أتلقى من دروس، أثناء المواسم الدراسية لمعهد دمياط فى الخريف والشتاء.

وبقدر ما ازدهانى أن أتعلم مالا يتاح لغيرى من صواحبى وأترابى ضقت نفسا بما فرضه والدى على من قيود صارمة، تحبسنى طول ساعات الصبح لتلقى الدروس وحفظها، ثم تلزمنى فى ساعات الأصيل حضور مجلسه مع شيوخ المعهد الدينى على حين كانت صواحبى يمرحن لاهيات على ملعبنا عند شط النهر.

ثم مالبثت أن ألفت هذه القيود، أو لعلى ارتحت باليأس من الخلاص منها، فأقبلت بكل طاقتى على العلم، وقد استثار زهوى ماكنت أسمع من زملاء أبى الشيوخ، عن أهليتى لما وهبت له من علوم الإسلام.

وأرضى غروري، أن أجدهم يصفون في طرب وعجب، إلى تلاوتي المجودة للقرآن الكريم، وإنشادي لما حفظت من قصائد الصوفية!

وكنت أزهو على أترابي في المدينة بحفظي للقرآن الكريم، فإذا سافرت إلى القرية، حيث لا مجال للزهو بما يحفظ مثله أكثر صبية الفلاحين، عمدت إلى المباهاة بما تلقيت من دروس العربية والإسلام.

وقد كلفني ذلك الزهو (علقة ساخنة) من جدي لأبي:

كان قد لمحني ذات صباح، خارجة من الدار قبيل مطلع الشمس، فلما سألني عن وجهتي أجبت بأني أبتغي أن أجيء لأمي ببعض أزهار الليمون من بستاننا بحري القرية .

وتردد لحظة قبل أن يأذن لي في الخروج، وأمرني أن ألقي نظرة على أشجار الخوخ لأرى كيف حالها..

وانطلقت أعدو وأنا لا أكاد أصدق أنني مطلقة السراح، فلما وصلت إلى البستان - ولم تكن مساحته تتجاوز فدانين - غمرني شعور الارتياح المنعش، إذ أستقبل شروق الشمس في ذلك الخلاء الأخضر، وأنشق عبير الصباح معطرا بشذى الأزهار..

ونسيت جدي وسؤاله عن حال الخوخ، حتى إذا شارفت دارنا في طريق العودة، تذكرته بغتة فلم أدر بم أجيب.

وقاومت خوفي، بأني قد أستطيع التسلل إلى غرفتنا العلوية

٩

دون أن يشعر جدى بعودتى، غير أنه لمحنى من مجلسه بالمنظرة المفتوحة على دهليز الدار، ونادانى ليسمع منى:

كيف حال الخوخ؟

قلت فى ارتباك: عال!

فعاد يسأل عما أعنى، فلم يسعفنى ذهنى بجواب، سوى: ضارب إلى الحمرة!

وإذ هم بأن يضربنى، انطلق لسانى بالكلمة التى كان ينبغى أن أقولها: محمر..

وعدوت إلى غرفتنا وثبا، ألتمس الأمان بين ذراعى أمى، وصوت جدى يعلو ورائى ساخرا بما حسبه تعالما منى وتفاصحا:

- هيه! دى آخرة عيشتك فى الحضر.. مانابك من غربتك إلا عوج ضبتك..

وأذكر أننى لبثت أياما أطيل التفكير فى تعبيره عن حياتنا فى دمياط بالغربة! فمبلغ علمى، حتى ذلك العهد، أن موطنى الأصلى هو هذه البلدة الساحلية الجميلة التى كانت لمولدى مهدا ولطفولتى ملعبا. وفيها ولدت أختى، وأمى، وكل أهلها من قبل. وبها المقر المستديم لعمل والدى منذ بدأ التدريس. وليست القرية - فيما تصورت - إلا منطقة اصطياف لنا، بديلا عن رأس البر مصطاف أهل بلدتى.

ومهما يكن ارتباطى الوثيق بالقرية، فلن يبلغ مبلغ حبى وولائى لأول أرض مس جلدى ترابها الطيب.

وما شعرت قط، أن أمى طاب لها المقام فى الريف بعيدا عن أهلها، بل كنت أسمعها فى وحدتها تشدو هامسة بأغنيتها المفضلة:

زورونى فى السنة مرة

حرام تنسونى بالمرة

فأحس فى صوتها شجو الحنين وشجن الغربة

فما لجدى يقول أننا فى تلك المدينة الغالية غرباء!

ذلك ما لم أقتنع به قط.

وإن كنت تعلمت من ذلك الدرس القاسى الذى ألقاه على، أن أتحاشى التفاصح فى القرية، وأتجنب التشدق بالألفاظ الفخمة التى لا تدور على ألسنة القوم هناك، كيلا يظنوا بى أنى أتعالم عليهم وأغض من أميتهم!

بل لقد تعمدت كذلك أن أتكلم بلهجة ريف المنوفية، كى أتقى سماع عبارة «مانا بك من غربتك إلا عوج ضبتك» بما تثير فى وجدانى من إحساس بجرح انتمائى إلى البلدة الجميلة الطيبة.

* * *

وإذا كنت قد حرمت فى القرية، من يومئذ، لذة الزهو بما حصلت من مبادىء العلم، فقد بقى لى فى دمياط مجال الزهو بما أتيح لى دون لداتى وصواحبى، من حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف والمدح النبوية والأناشيد الصوفية..

إلى أن عدنا من رحلة الصيف حوالى عام ١٩٢٠ ـ وقد كانت مشحونة بأصداء الثورة ـ فلم نكد ننفض عنا غبار السفر الطويل حتى سارعت إلى ملعب الأصحاب على شط النهر، فألفيته فى عز النهار خاليا موحشا!

ومضى النهار كله وأنا مطلة على الشط من النافذة البحرية فى بيت جدى لأمى، دون أن ألمح لأترابى أثرا، وكأنما ابتلعهن الماء أو سحبتهن جن النهر إلى القاع!

وسعيت فى الأصيل إلى دور الحى، أسأل عن الخبر، ففوجئت بأن الصغيرات قد بدأن الدراسة المنتظمة فى «مدرسة اللوزى الأميرية للبنات»!

وتطوعن جميعا فعرضن على، أزياءهن المدرسية الأنيقة، والكتب المصورة والكراسات المتنوعة والأدوات المدرسية التى وزعت عليهن.

وطاب لهن كذلك، أن يسمعننى حديثا عجبا عن «الأبلوات اللطيفات، وقاعات الدرس المزينة جدرانها بالصور، وقاعة المائدة

الفسيحة المنسقة. وعن «داده أم حبيبة» التى تبيع لهن الحلوى فى فترات الفسح!

ورجعت إلى البيت وأنا مشغولة البال بما سمعت، ولاحظ والدى على، أننى لا أكاد ألقى سمعى إلى ما يلقى على من دروس، فلما سألنى عما بى، تشجعت فصارحته بما يشوقنى من الذهاب إلى المدرسة مع بنات الجيرة..

فكأننى نطقت كفرا!

وجاءنى الرد، حازما حاسما:

«ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الفاسدة المفسدة، وإنما يتعلمن فى بيوتهن».

وأمرنى فتلوت سورة الأحزاب إلى قوله تعالى:

«يا نساء النبى لستن كأحد من النساء أن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، وأذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة، إن الله كان لطيفا خبيرا».

ولم أسأل والدى:

- وهل أكون من بيت النبوة؟..

لعلمى أنه كان يعتز بنسبه الشريف، ويحتفظ بسلسلة آبائه إلى جده الإمام الحسين، ولد الزهراء رضى الله عنها وعنه..

وإنما أردت لأسأله:

- وهل بلغت مبلغ النساء؟

ثم تهيبت، فلذت بالصمت...

ومضت أشهر ذات عدد، وأنا أتبع بنات الحى بصرى وقلبى فى رحلتهن اليومية إلى المدرسة، ثم أخلو فى ليالى المسهدة الطوال إلى الهم والحسرة.

وزهدت فى الدنيا بقدر ما يحتمل عمرى الغض، وبان على من الذبول والشرود والانطواء ما جعل أمى تفزع إلى جدها - الشيخ محمد الدمهوجى، رحمه الله ورضى عنه - تلتمس منه النصيحة والرأى، فى موقفها الحائر الصعب بين حرصها على ألا تتدخل فيما يريد لى أبى، وفزعها من عواقب ما أكابد من قهر وحرمان.

وتدخل الجد رحمه الله لحسم الموقف، فمازال بوالدى حتى انتزع موافقته المكرهة على التحاقى بمدرسة اللوزى للبنات، بشروط ثلاثة:

- ألا دخل لوالدى إطلاقا، بأى طلب للالتحاق أو إجراء من إجراءاته، أو أى شأن يتصل بالمدرسة من قريب أو بعيد!

- أن أتابع دراستى الدينية فى البيت، دون أن يترتب على دخولى المدرسة، أى تهاون أو تقصير فى دروسى الخاصة.

ـ أن أنقطع نهائيا عن الخروج إلى المدرسة، بمجرد أن أشارف سن البلوغ!

وفرجت، وكنت أظنها لا تفرج!

وأصبح جدى فسعى سعيه حتى ألحقنى بالمدرسة بعد مشقة بالغة، إذ كانت السنة المدرسية على وشك انتهاء. وقدم الأوراق المطلوبة، بوصفه نائبا عن ولى أمرى!

وكان المفروض أن ألتحق بالسنة الأولى.

وما زلت حتى هذه اللحظة، أذكر أن يومى السعيد الأول بالمدرسة، كان يوم خميس على التحديد، وأذكر الحجرة الدراسية التى دخلتها فى نهاية الجناح الشرقى للمبنى الفخم.

بل مازلت أتذكر كذلك المقعد الإضافى الذى جىء به فوضع لى أمام المقعد الأخير من الصف الأول، حيث جلست أؤدى امتحان النقل إلى السنة الثانية مع تلميذات السنة الأولى، ولم يكن قد مضى على دخولى المدرسة سوى الدقائق المعدودات التى استغرقها طريقى من «مكتب حضرة الناظرة» إلى حجرة السنة الأولى، عبر فناء المدرسة الرحب النظيف، والممر الممتد أمام الجناح الشرقى الذى يقع (فصلى) فى نهايته!

وأديت الامتحان فى أقل من ثلث الوقت المحدد له، فما كادت معلمة الفصل «أبلة عزيزة الدمياطى» تلقى نظرة على إجابتى، حتى هتفت دون أن تكتم دهشتها:

ـ عجيبة! هذه إجابة غير منتظرة من أى تلميذة..

وكتمت ضحكة كادت تفلت منى، فما كانت الأسئلة بالنسبة إلىَّ، سوى لعب عيال!

وإن عجبت فعجبى للمعلمة التى تتصور أنى مبتدئة فى العلم، فتستغرب مثل هذه الإجابة منى!

* * *

وأغرانى التفوق بالإقبال على دروسى الخاصة فى البيت، التماسا لرضى والدى، وحرصا على أن يطمئن فلا يروعنى بالحرمان من الذهاب إلى المدرسة، وقد أعاننى على مضاعفة جهدى فى البيت، أن علومى المدرسية لم تكن تكلفنى أى جهد، فضلا عما اكتشفته منذ اليوم الدراسى الأول، من أن حصيلتى من دروسى الخاصة، هى التى تبهر المدرسة فترى فى أعجوبتها النادرة..

وقد ضقت أول الأمر بجفوة الزميلات، غير أن الجفوة مالبثت أن ذابت، فى عالم صبانا الغض البرىء..

وأطوى حشدا من ذكريات العامين التاليين بالمدرسة والبيت والقرية، لأقف عند ذكرى بعينها تشبثت بوجدانى فى إلحاح، وأثرت فى مجرى حياتى تأثيرا بعيد المدى..

ومنها امتد خيط طويل غير مرئى، مابين مقعدى فى مدرسة اللوزى الأميرية للبنات بدمياط - بجوار النافذة الغربية، فى نهاية الصف الأول من حجرة الدراسة للفرقة الثالثة - وبين مكان لى فى الجامعة، كان حينذاك مطويا فى مجهول الغيب.

إنها ذكرى رؤيا بعيدة، ظلت تردنى عبر حدود الزمان إلى يوم بذاته، أخذت فيه مكانى فى الصف، ودخل علينا مفتش وقور فبدأ يمتحننا فيما حفظنا من سور جزئى «عم وتبارك» المقررة على فرقتنا. وحين بدا ضيقه بتعثر التلميذات فى التلاوة، تلطفت حضرة الناظرة «السيدة زينب الحناوى» فاقترحت عليه أن يسمع تلاوتى للقرآن الكريم الذى حفظت أكثره!

وارتاب المفتش فيما سمع، ثم سألنى أن أسمع له سورة النور، فلما وصلت منها إلى قوله تعالى: «الله نور السماوات والأرض» الآية، دون أن أخطىء أو أتعثر، عاد يسألنى أن أتلو ما أحفظ من «سورة الكهف» فمضيت أتلو وهو يصغى بكل سمعه، حتى دق الجرس مؤذنا بانتهاء الحصة، فتوقف برهة يتحدث إلى ويدعو لى، ثم انصرف راضيا وأنا أعجب فى سرى لما بدا لى من سذاجته، إذ كنت أعلم علم اليقين ما حسبه امتيازا لى، يشاركنى فيه كل طلاب المعهد الدينى بدمياط، بل كل زملائى من صبية القرية فى «كتاب الشيخ مرسى»!

وعدت إلى البيت وأنا لا أفكر إطلاقا فى أن ما حدث لى بالمدرسة، يستحق أن يروى لأهل البيت.

غير أنى عندما أويت ليلتها إلى فراشى، رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكانى، ويعطينى لفافة خضراء ثم يحلق عاليا فى السماء. ولما فتحت اللفافة، وجدت فيها مصحفا شريفا لم تكن عينى قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء!

وكنت بحكم نشأتى فى بيئة بحرية نهرية تموج بالأساطير وتجسم تهاويل الخيال، ثم بحكم بنوتى لشيخ متصوف يعد الرؤيا الصادقة من علامات صفاء البصيرة وإشراق الوجدان.

أقول: كنت بحكم ظروف نشأتى وبيئتى، أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤى، فلما صحوت من نومى، أدركت عن يقين أن حياتى كلها مرتبطة بهذا المصحف، هدية السماء إلىَّ فى رؤياى..

ومن يومها، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ العلماء، وصار مكانى المفضل فى خلوة أبى بجامع البحر، أحاول أن أسبق عمرى وأتجاوز القدر المدروس لى من علوم الإسلام.

ومن رؤيا الصبا هذه، امتد الخيط غير المرئى، بين ذلك الشوط الأول على شط النهر، وبين ما انتهى إليه طريقى العلمى من تلمذتى للأستاذ أمين الخولى، وتخصصى فى دراسة النص القرآنى، على منهجه.

أقول هذا وأنا أتمثل نفرا من قومى، يهزون رءوسهم حين يسمعون ما أروى من حديث رؤياى، استنكارا لتأثرى بحلم عابر فى منام صبية لم تكمل العاشرة من العمر..

ولعلهم لو نشأوا فى مثل بيئتى، وتلقوا ما تلقيته من ميراثها النفسى والعقلى، لما أنكروا من الأمر شيئا.

ومن عجب أنهم لا يستغربون قصة أجنبية تقوم عقدتها على رواسب فى أعماق الذات من عهد الطفولة..

وإنهم ليقرأون بشغف وتقدير، بحوث علماء النفس المحدثين فى الأحلام وبواعثها وآثارها وأصدائها وظلالها، حتى إذا قالها

قائم منا، من صميم واقعه، عجبوا وتندروا، ناسين أننا بشر، قد يغلب أثر الرؤيا فينا، حكم الواقع، ويتحدى بمنطق العاطفة منطق العقل..

* * *

وأرانى استطردت من حيث لم أقصد، فلأعد إلى ما كنت فيه من تتبع آثار خطاى الأولى على دربى البعيد، عندما أتممت الدراسة بمدرسة اللوزى للبنات، وقد جاوزت سن العاشرة التى حددها والدى لحجزى فى البيت مع الحريم.

وكنت فى بداية الطريق أتصور أننى قد أكتفى من التعليم المدرسى بتلك المرحلة الأولى، غير أنى لم أكد اجتازها حتى كرهت أن تواصل زميلاتى تعليمهن فى المدرسة الراقية، وأتخلف عنهن واقفة عند ذلك الشوط القصير.

ولقد كانت المدرسة الراقية، تشغل الطابق العلوى من مبنى مدرستنا، فكنا طوال المرحلة الأولية نرنو مستشرفات إلى ذلك الدور الأعلى ونرى فيه منتهى أملنا! والمفروض أن تختار المدرسة الراقية تلميذاتها ممن أتممن الدراسة بتفوق، وقد كنت أولى الناجحات.

ومرة ثانية لجأت إلى جد أمى، أستعين به على إقناع والدى ليسمح لى بمواصلة التعليم فى المدرسة الراقية. فلما أعياه أن

يقنعه، ذهب إلى جامع البحر، يستعين بشيوخ المعهد على عناد أبى، وإصراره على حجزى فى البيت، ولم أبلغ بعد سن الحجاب..

وطالت المجادلة بينهما حتى صارت إلى خصومة حادة، دون أن يتزحزح والدى عن موقفه. وخرج جدى منفعلا بالغيظ والغضب، فلم يلتفت إلى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة أمام الجامع لحظة انصرافه، فألقت به على الأرض المرصوفة بحجارة صخرية، فلم ينهض على ساقيه بعد ذلك قط!..

حملوه إلى البيت، وجاء أكبر أطباء المدينة فشخص الحالة بأنها اشتباه فى كسر عظم الفخذ، لا يرجى جبره فى تلك الشيخوخة العالية، وإن كان لا خطر منه على حياة الشيخ، لقوة بنيته وسلامة أجهزته الحيوية.

ومضت شهور الصيف، وأخوالى يطوفون بالجد على أطباء العظام ومشهورى المجبرين، إلى أن انتهى به المطاف إلى فراشه ليمضى ما بقى من سنوات عمره كسيحا مقعدا.

وعشت معه محنته، وأرهقنى الشعور بعقدة الذنب أن كنت السبب المباشر لتلك الإصابة التى لا تجبر، فلزمت غرفته لا أكاد أبرحها إلا لقضاء حاجة له، حتى إذا حان موعد افتتاح الدراسة بالمدرسة الراقية، أصر على ذهابى إليها، لا يبالى ما قد يلحق به من أذى، وكان أهل البلدة لا يكادون يرتابون فى أن ماحدث له، ليس إلا كرامة من كرامات والدى التقى الولى الصالح.

غير أن والدى رق للشيخ الكسيح فى محنته، فتخلى له عنى، أقوم على خدمته وأعيش إلى جواره.

وسكت على مضض، حين أرسلنى جدى إلى المدرسة الراقية..

وكأنه كره فى أن يتصدى لمعارضة الشيخ المقعد، فى الرغبة الوحيدة التى تعلق بها، وزادته المحنة إصرارا عليها وتشبثا بها.

* * *

وأظننى بدأت فى تلك بالمرحلة، أتصل بالصحافة والحياة العامة عن طريق غير مباشر: فلقد كانت الهواية الوحيدة لجدى بعد أن قيدته الحادثة إلى فراشه، أن يتتبع ما تنشره الصحف من أخبار. كما كان مشغلته، التفكير فى إنقاذ دمياط من الموت الاقتصادى الذى يهددها بتراكم رواسب النيل عند بوغازها قرب المصب على ساحل البحر.

وتحت وطأة شعورى بالأسى لما أصاب جدى بسبب إصراره على تحقيق مناى فى التعليم بالمدرسة، تفانيت فى خدمته وأنا أشعر نحوه بولاء المدين بدين باهظ، فكان من واجباتى اليومية، أن أشترى له فى طريق عودتى من المدرسة، جريدتى الأهرام والمقطم، لأقرأهما له، ثم أجلس إليه فى عطلة آخر الأسبوع، ليملى علىَّ «عرض حالات ومقالات» يبعث بها إلى الحكام فى مصر، وإلى الصحف اليومية، فى موضوع تعطل الميناء وحوادث

غرق السفن الشراعية أثناء عبورها البوغاز، لكثرة ما تراكم فيه من رواسب على مر الزمن..

وهكذا على مدى السنوات الثلاث التى قضيتها فى المدرسة الراقية، تابعت هذا العمل، وكنت أول الأمر استجيب فيه لحرصى على أداء بعض ما أدين به لجدى. غير أنى ما لبثت أن أحببت الكتابة، وأرضانى أن أطالع فى الصحف ما كتبته تعبيرا عما كان الجد يمليه علىَّ، فمضيت أتفنن فى الأسلوب وأبذل لتجويده كل طاقتى..

حتى أتممت المرحلة التعليمية بالمدرسة الراقية بنجاح، وبعدها بدا الطريق أمامى مسدودا..

فمن ناحية، كنت قد بلغت من العمر ثلاثة عشر عاما، وهى سن الحجاب التى تفرض حجزى فى البيت مع الحريم!

ومن ناحية أخرى، لم يبق فى دمياط أى مجال لتعليم البنات بعد المدرسة الراقية، وإنما كان على الراغبات فى مواصلة التعليم، اما أن يقضين شهورا أربعة فى «دراسة صيفية» تعدهن لوظيفة معلمات فى المدارس الأولية للبنات، وأما أن يتقدمن لامتحان القبول فى مدرسة المعلمات بالمنصورة وهى أقرب عاصمة إلى بلدتنا، من عواصم المديريات التى فيها مدارس للمعلمات.

ولم أفكر بطبيعة الحال، فى تلك الدراسة الصيفية الهزيلة التى ألجأت إليها ضرورة طارئة للتعجيل بتخريج معلمات من أدنى المستويات، بل تطلعت، متحدية كل دواعى اليأس والقنوط، إلى مدرسة المعلمات بالمنصورة. وشاءت الظروف أن يتحدد موعد

امتحان القبول بها، أثناء غياب والدى عن دمياط، فى إحدى رحلاته المتتابعة لحضور موالد آل البيت وأولياء الله الصالحين، ما بين القاهرة وطنطا ودسوق. وكان من عادته فى مثل هذه الرحلات، أن يعرج فى طريق العودة على قرية «أبى حريز» بمديرية الشرقية، ليزور شيخه فى الطريق وإمامه فى التصوف، العارف بالله «الشيخ منصور أبى هيكل الشرقاوى» فتستغرق الرحلة الواحدة نحو عشرة أيام، على حين لا يحتاج الامتحان إلى أكثر من أربعة أيام..

ورق لى قلب أمى، حين رأت إصرارى على أداء الامتحان، وليكن بعد ذلك ما يكون . فجازفت وتسللت بى من دمياط ذات صباح إلى المنصورة، حيث تركتنى بالقسم الداخلى فى مدرسة المعلمات، على أن أعود بعد أيام الامتحان الأربعة، مع زميلاتى من بنات دمياط.

ولا أصف هنا مدى انفعالى بذلك الجو المدرسى فى مستواه العالى الذى لا عهد لنا بمثله فيما مضى. وقد رحت أطوف بأرجاء المبنى الكبير مأخوذة بالنسق البديع لعنابر النوم، وقاعة المكتبة، وحجرات الدراسة. وكان نظام الامتحان يسمح لمن أتمت التعليم بالمدرسة الراقية، أن تؤدى امتحان القبول للسنة الثانية معلمات مباشرة. أما اللواتى لم ينلن الشهادة الراقية، فيتقدمن لامتحان القبول بالسنة الأولى.

وأديت الامتحان الأول، للسنة الثانية، وأنا أقهر فى أعماقى شعور الخوف من والدى. حتى إذا فرغت منه، وأخذت أول قطار إلى دمياط، عاودنى ذلك الخوف الذى أفلحت فى مقاومته لمدى أيام، فعاد أقسى ضراوة وحدة..

وتمهلت عند باب بيتنا فترة لم تطل، ثم انطلقت إلى بيت جدى ألتمس الأخبار عن بيتنا فى غيبتى، وأتزود بمدد من التشجيع يعيننى على مواجهة والدى إن كان قد علم بالخطوة الجريئة التى خطوتها فى غيبته.

لكن الأزمة مرت بسلام..

أو هكذا بدا لنا، حتى دنا موعد الموسم الدراسى ففوجئت بأن زميلاتى اللائى أدين معى الامتحان، تلقين من إدارة المدرسة إخطارا بقبولهن، ومعه بيان بالملابس والأمتعة الشخصية المطلوبة منهن للقسم الداخلى.

ولم أتلق معهن مثل هذا الإخطار، مع أن المدرسة أذاعت من قبل نتيجة الامتحان، وكنت أولى الناجحات فى القبول للسنة الثانية!

وأشار جدى بأن نبعث خطابا مسجلا إلى المدرسة، نستفسر فيه عن الموقف الغريب، وسرعان ما تلقينا الرد، بأن والدى تقدم إلى المدرسة بوصفه ولى الأمر، فسحب كل أوراق التحاقى بها!

* * *

فعلها أبى إذن، دون أن يتكلف من جهد مجادلة أو مغاضبة!

وجن يأسى، فأمسكت عن الطعام حتى خيف على من الموت، وتكاثر أهلى وزملاء والدى عليه، فلم يدعوه حتى وعد بأن يرسل خطابا إلى إدارة المدرسة!

وما كان لى ولا لأحد سواى أن نرتاب فى صدق كلمته. غير أن الذى حدث فعلا ـ كما أخبرنا بعد أن افتتحت الدراسة ولا خبر من هناك ـ أنه وضع ورقة بيضاء فى مظروف كتب عليه عنوان المدرسة، وألقاه فى صندوق البريد، فتحلل بذلك الإجراء الصورى، من تبعة الحنث بوعده!

* * *

بعد شهرين من بدء الدراسة، كانت أمى، رحمها الله، قد ظفرت لى بالإذن فى التعليم، ممن لا يملك والدى أن يعصى له أمرا: صحبت أبى فى سفره إلى إمامه وقدوته «الشيخ منصور أبى هيكل الشرقاوى» وعرضت عليه القضية، وما زالت تستعطفه وترجوه، حتى أذن لى فى التعلم، على مسمع من والدى!

وعادت لى بالبشرى فردت الروح إلى، ثم سارعت فجهزت لى ملابسى وأمتعتى المطلوبة للقسم الداخلى ـ وكأنه جهاز عرسى ـ وسافرنا إلى المنصورة لنفاجأ بأن المدرسة استنفدت كل العدد المقرر قبوله من الطالبات، فلم يعد لى فيها مكان!..

وقبل أن نفيق من ذهول الصدمة المباغتة، استطردت ناظرة المدرسة فأشارت علينا بتقديم طلب التحاق إلى مدرسة جديدة للمعلمات، تقرر فتحها فى مدينة حلوان، وما تزال هناك فرصة لقبولى بها، لأن الدراسة فيها لم تكن بدأت بعد..

وتطوعت السيدة الناظرة، فزودتنا بشهادة رسمية من المدرسة بأنى نجحت بتفوق فى امتحان القبول للسنة الثانية بها.

وخرجنا، وفى ظنى أن أمى سوف تعود بى إلى دمياط ريثما تدبر أمر الرحلة إلى مدينة حلوان التى لم نكن سمعنا باسمها من قبل، ولا كان لنا علم بطريق الوصول إليها وما يتكلفه من نقود..

لكن أمى لم تلبث فى المنصورة إلا ريثما باعت سوارا ذهبيا كانت تتزين به، وقطعت لنا تذكرتى سفر بالدرجة الثالثة، فى أول قطار إلى القاهرة!

وألقى بنا القطار فى ضجيج الزحام بمحطة مصر، غريبتين ضائعتين، لا نكاد ندرى موضع أقدامنا فى ذلك العالم الصاخب المجهول، وأذكر أننى أغمضت عينى، كأنى أتقى شبح الضياع، على حين مضت أمى تسأل من تتوسم فيه الخير، عن طريق الوصول إلى «شارع زين العابدين» بالسيدة زينب، حيث كان خالها يسكن فى بيت يملكه هناك.

وصحبنا الخال إلى حلوان، لنفاجأ بأن المدرسة الجديدة لن تبدأ الدراسة فى ذلك العام، إلا بفصول الفرقة الأولى!..

وتشاغلت ناظرة المدرسة عن لمح ما بدا علينا من بوادر الخيبة، بقراءة الخطاب الذى حملناه إليها من المنصورة، ثم أقبلت علينا بوجه باش، فأعربت عن ترحيبها بقبولى، لو أنى تنازلت عن حقى فى دخول السنة الثانية التى نجحت فى امتحان القبول بها..

ووقَّع خالى إقرار التنازل، ونحن لا نكاد نصدق أن باب الفرج قد فتح أمامنا بعد يأس غالب!

وأحست أمى، كأن عبئا ثقيلا أزيح عن كاهلها، فاسترسلت ـ متأثرة بلطف حضرة الناظرة وأنس محضرها ـ تفضى إليها بما لقينا فى طريقنا من نصب، فما كان من السيدة الكريمة إلا أن أذنت لى فى الإقامة بالمدرسة إلى أن يحين موعد افتتاح الدراسة بعد أسبوعين.

وودعتنى أمى، وهى مطمئنة إلى رعاية الله لى فى ضيافة هذه السيدة الطيبة ناظرة المدرسة. وعادت إلى دمياط لتقف وحدها فى مهب الإعصار، وعلى وجهها نور الاستشهاد!

* * *

كان مبنى المدرسة قصرا شامخا يقوم فى أقصى الطرف الجنوبى لحلوان، وسط حديقة واسعة تفصل مبنى المدرسة عن الخلاء المقفر الممتد وراءها إلى نهاية مد البصر.

وقد طاب لى أن أسرح فى الحديقة ساعات الصباح والمساء، متطلعة بوجدانى إلى بلدتى البعيدة وشاطئى المهجور وأهلى النائين. وأنست إلى وحدتى، حيث كنت أقيم فى جناح الداخلية، بعيدا عن الجناح المخصص للسيدة الناظرة ومعاوناتها من هيئة الإدارة والتدريس، فقلما كنت أتصل بغير (الفراشة) المختصة بالخدمة فى القسم الداخلى، والتى كانت تحمل طعامى إلىَّ، فى أوقاته المعينة، ثم تبيت فى غرفة مجاورة لمخدعى فى عنبر الداخلية.

ولم يزعجنى فى أول الأمر، سوى عواء الذئاب فى الصحراء الممتدة وراء القصر، غير أنى مالبثت أن ألفته واعتدت عليه، فصرت أصحو من نومى على ذلك العواء الذى يجرح صمت الليل، وكأنى معه على موعد، فأجد فى الإصغاء إليه مجالا للتأمل فيما عساه يضنى الوحوش من أحزان ومواجع وهموم.. ذلك أنى ما سمعتها قط تعوى الا فى جوف الليل، وبمجرد أن يبدأ ذئب منها فى المواء، تجاوبه سائر ذئاب المنطقة وتتجمع من هناك وهنالك متواثبة إلى حافة العمران، وكأنها تفر من وحشة الليل وتلتمس فى التجمع والدنو من العمران، شيئا من الإيناس لا تجرؤ على التماسه فى ضوء النهار خوفا من أذى الناس وعدوانهم..

* * *

وقبل افتتاح الدراسة بيومين، بدأت الطالبات المغتربات يتوافدن من أقاليم بعيدة شتى، فانتهت بذلك فترة الوحدة التى أمضيتها مع نفسى، وكتمت ضيقى بالضجيج الذى أفسد علىّ، هدوء الخلوة واستغراق التأمل، لكن الدراسة لم تكد تبدأ حتى ازدهانى أن يكون لى امتياز الطالبة الوحيدة التى تنازلت عن حقها فى دخول السنة الثانية، فلم أشعر بأدنى غضاضة من وجودى مع طالبات السنة الأولى، ولا ساورنى أى ندم على قبوله، بل لعلى ما كففت عن استجماع وعيى، لأصدق أننى قد

ظفرت حقا بما كان يبدو لى، من كواذب الأمانى وسراب الأوهام..

وكان شعورى بالأمان، يفيض على دنياى أنسا وطمأنينة، فاندمجت بكل كيانى فى بيئتى الجديدة، وحرصت على أن أحقق بتفوقى واجتهادى، مكانا لى مرموقا فيها.

دون أن يخطر لى على بال، أن تلك الفترة السعيدة التى أمضيتها فى «حلوان» لم تكن سوى هدنة مؤقتة من شواغل القنوط ومحنة القلق، ريثما أتلقى الصدمة الجديدة من حيث لا أدرى ولا أتوقع..

* * *

استدعتنى حضرة الناظرة ذات يوم إلى مكتبها، ولم يكن قد مضى على فى عالمى الجديد الآمن غير شهرين، وأنبأتنى بأقصى ما تستطيع من عطف وترفق، أن وزارة المعارف رفضت رسميا اعتماد قبولى طالبة بالمدرسة، حيث لا تجيز اللوائح أن أقبل إلا فى السنة الثانية التى نجحت فى امتحانها

وغشينى ما يشبه الدوار لحظة، كانت نفسى خلالها تفتش عن خيط من الرجاء، يعصمنى من الانهيار.

وتماسكت وأنا أردد، وكأنى أخاطب نفسى:

«هل أستطيع الانتظار إلى العام التالى، حيث تكون المدرسة قد افتتحت فصولا للسنة الثانية؟.. ولكن، من يضمن لى أن يردنى والدى إلى المدرسة، بعد عودتى إليه؟»

وقالت الناظرة وهى تبالغ فى مواساتى:

ـ بل تبقين هنا فى ضيافتى، وعلى مسئوليتى، إلى أن أراجع وزارة المعارف فى قرارها بشأنك، فلعلها ترجع عنه، أو فلتدبر لك

مكانا فى السنة الثانية بمدرسة معلمات طنطا، حيث أعلم أن بها أماكن خالية.

ورغم تأثرى العميق بهذه الرعاية الكريمة، أشفقت على نفسى من الاغترار بأمل كان يبدو لى فى منطقة السراب، فاستسلمت للقنوط وأمضيت أياما تعسة، منطوية على نفسى أجتر الصدمة.

حتى جاء رد مدرسة معلمات طنطا بعد حين، بقبول التحاقى بالسنة الثانية فيها، بشرط النجاح فى الكشف الطبى، حيث لم أكن قد أديت هذا الكشف فى المنصورة.

وجاء عمى . وكان قد عين ناظرا لمدرسة البنين فى إحدى قرى إمبابة . فتسلمنى من المدرسة، ومضى بى إلى القاهرة حيث أنزلنى فى ضيافة أسرة صديق لوالدى من كبار رجال التعليم «الشيخ موسى قمر، الأستاذ بالمدرسة السنية للمعلمات ودار العلوم» رحمه الله..

وتقرر أن أجرى الكشف فى القسم الطبى بوزارة المعارف، كى أذهب بعده مباشرة إلى طنطا، مستكملة مسوغات القبول.

ونصح الأستاذ الشيخ موسى لعمى، أن يمضى بى إلى أحد أطباء العيون لإجراء كشف تمهيدى قبل إجرائه رسميا فى الوزارة. وقد نجحت فى ذلك الكشف التمهيدى، وإن يكن الطبيب قد أوصى بعمل نظارة طبية، ضمانا للنجاح، مع احتمال الشدة فى الكشف الرسمى.

وإذ كان عمى يلبس نظارة، سألته ونحن فى طريقنا إلى منزل الضيافة، عما إذا كانت نظارته طبية؟ فلما رد بالإيجاب، اقترحت عليه أن يعيرنى أياها يوم الكشف الطبى فى الوزارة!

قال وهو يقدمها إلى:

- جربيها أولا، لنرى هل هى على مقاس بصرك؟

فلم أفهم بالضبط ماذا يعنى بمقاس البصر، إذ كنت لغفلتى وسذاجتى أتصور أن كل النظارات الطبية سواء! وما دام عمى يملك إحداها، فأولى بى أن أستعيرها منه، بدلا من إرهاقه بشراء نظارة أخرى.

وجربتها مع ذلك، إجابة لطلبه، فلم يشق على أن أميز المرئيات بها!

وهكذا توجهت فى الصباح التالى، يصحبنى عمى، إلى القسم الطبى بمبنى وزارة المعارف، حيث أدخلونى، ومعى النظارة المستعارة، إلى (خواجاية) ترطن بلغة أعجمية لا أفقه منها حرفا، وقيل لى إنها «المسز جارفس» رئيسة القسم الطبى للبنات بالوزارة!

ولم أسترح قط إلى هذه السيدة الأجنبية، فى جفاف أساريرها وخشونة ملامحها، وما يبدو فى حركاتها ولهجة صوتها، من مخايل الكبر والتعالى. وخيل إلى أنها ازدرت سحنتى

الإقليمية وزيى البلدى، فلم تستغرق معى فى إجراء كشف النظر سوى دقيقة واحدة التقطت فيها مؤشرا وأشارت إلى الصف الأعلى من لوحة علامات الإبصار، مرة واحدة للعين اليمنى وأخرى للعين اليسرى، ثم صرفتنى فى ضيق لم تحاول إخفاءه..

وانتظرنا على باب مكتبها، حتى خرج سكرتيرها الخاص فأعلن نتيجة الكشف: ٦ على ٦٠ لكلتا العينين، وتأشيرة بسقوطى فى كشف النظر!

جرنى عمى جرا، وأنا منهارة من اليأس، فذهب بى إلى طبيب العيون الذى مالبث أن اكتشف سر المأساة.

وأمر فتوجهنا إلى متجر كبير للنظارات، قرب ميدان «العتبة الخضراء» حيث استسلمت لعملية فحص وتجربة، زودنى بعدها بنظارة طبية على مقاس بصرى، استطعت أن أميز فتحات الدوائر السفلى من لوحة علامات النظر.

وعدت إلى وزارة المعارف، فى صحبة «الأستاذ الشيخ موسى قمر» هذه المرة، فرفضت «مسز جارفس» أن تستقبلنى، ولم تستجب لرجاء السيد مراقب تعليم البنات فى إعادة الكشف الطبى، وذلك ـ فيمًا فهمت من الحوار حول الموضوع ـ حق مقرر لى بمقتضى اللوائح.

ولم ييأس «الشيخ موسى» بل راح يطوف بمكاتب الوزارة، مكررا عشر مرات وعشرين، قصتى مع نظارة عمى، حتى

استطاع آخر الأمر أن يظفر لى بخطاب من سعادة مراقب تعليم البنات، إلى مدرسة معلمات طنطا، لتقبلنى بالسنة الثانية، بعد أن تعيد الكشف الطبى علىَّ.

وتطوع الأستاذ الشيخ فسافر بى إلى طنطا، وانتظر حتى أتمت طبيبة المدرسة إجراء الكشف وأعلنت نجاحى فيه.

وتركنى الشيخ الجليل فى رعاية زميليه مدرسى اللغة العربية بالمدرسة، وودعنى بعد أن اطمأن إلى استقرارى فى القسم الداخلى، واستكمل ما كان ينقصنى من حاجاته!

وحسبت أنها نهاية المطاف، أقبلت على دروسى جادة فى تحصيل ما فاتنى منها، وقد أوشك امتحان نصف السنة أن يعقد..

وأديته بنجاح، ثم تابعت الدراسة بقية الموسم، وأنا أقاوم بكل طاقتى شعورا بقلق خفى، ظل يطاردنى فى اليقظة والمنام. وقد عللته بأنه فرط حرص منى على مواصلة التعليم، وصدى لما لقيت من مخاطر الطريق..

ذلك لأنه لم يكن هناك فى الظاهر، ما يدعو إلى قلق أو خوف، فالرسائل تأتينى من أمى بانتظام، ولا جديد فيها من أخبار عن الأسرة، مما يشغل البال..

وعدت إلى البيت بعد أن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثالثة، لأواجه ما طوته عنى أمى فى رسائلها إلى من مأساتنا:

مات جدى الشيخ، ووراوه الثرى دون أن أتزود منه بنظرة وداع أخير..

ومضى، دون أن أشيعه إلى مثواه، بكلمة ولاء وعهد ووفاء، تؤنس وحشة رحلته إلى حى الموتى، فى الطرف الأقصى من البلدة.

وتعرض بيتنا بعده لهزة عاصفة كادت تقوضه، إذ عاد أبى يصر على حجزى بالمنزل، وردى إلى الطريق المستقيم الذى انحرفت عنه.

وألفيت أمى مضغوطة بين شقى الرحى: لا تستطيع أن تتخلى عنى، كما لا تستطيع فى الوقت نفسه أن تعرض البيت للخراب، وفيه شقيقات لى خمس، وشقيقان أصغرهما رضيع فى الشهور الأولى من عمره!

وكلا الأمرين، أحلاهما مر!

وكانت أمى أقرب إلى أن تحمينى بأى ثمن، غير أنى ما كدت أذكر ما أصاب جدى بسببى، حتى تهيبت التضحية الفادحة التى تريد أمى أن تتحملها من أجلى! وروعنى التفكير فى احتمال أن يصيبها مثل ما أصاب الجد، إن هى جازفت بإغضاب أبى، على ما نعلم من سره الباتع!

كما روعنى أن أتمثل إخوتى السبع الصغار، حطاما مبعثرا بين أنقاض البيت الموشك على الانهيار.

هنالك قررت أن دورى قد جاء، لأحتمل عن أمى العبء الباهظ، فأكون قربان الفداء لسلامة البيت.

وساعدت الظروف على حسم الموقف، حين أصبت بانهيار عصبى أعيا الرقاة والأساة دواؤه، فانقطعت عن المدرسة، وتقرر شطب اسمى من سجل طالباتها، لعجزى عن الانتظام فى الدراسة.

ولم يبدُ على والدى أى قلق من ناحيتى، بل لعله كان بحيث يؤثر لى أن أموت ولا أحيد عن طريق العلم الحق، وعد كل ما أعانى، تكفيرا عن خطيئة خروجى إلى المدارس!..

أمى هى التى كانت شقية بمحنتى، وقد تضاعف همى بشقائها، فإذا بنا معا، فى دوامة من العذاب!

ومن أجلها تماسكت!

ولأجلها رحت ألتمس منفذا عبر الطريق المسدود، بعد أن أراحنى اليأس من هم التطلع والطموح..

رحت ألتمس منفذا، لتطمئن أمى إلى أن كل ما احتملناه فى الشوط الذى فات، لم يذهب عبثا..

* * *

كان المنفذ الوحيد أمامى، أن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات، حيث عكفت على

تحصيلها ثم تسللت من البيت خفية، وأبى غائب عن المدينة فى إحدى رحلاته، فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا، وخرجت منه ـ وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل ـ أولى الناجحات فى مصر. بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع، عن الطالبة التى تلينى فى ترتيب النجاح!

لكن ذلك الشوط لم يمض، إلا بعد أن وقفت لحظة فى نهايته، وقد لاح لى من بعيد، طريق آخر لم أكن اتجهت إليه قط، ولا جرؤت أحلامى على أن تتمثله أو تتعلق به.

كلا..

ولا كنت بحيث أعلم أنه الطريق المخطوط لى فى لوح القدر، كى يفضى بى إلى الدرب العجيب الذى أجد فيه ذاتى.

وقد بدا الأمر حينذاك، أشبه بمصادفة عابرة، لا تلبث أن تمضى دون أن تغير متجه خطواتى، أو تترك فى دنياى أثرا ذا بال:

حدث ذاك، يوم أخذت مكانى فى جانب من قاعة الامتحان الشفهى لشهادة المعلمات، أنتظر دورى لأؤديه بعد الطالبات الرسميات.

وكان الأساتذة الممتحنون قد ضاقوا بتعثرهن فى تلاوة السور القرآنية والنصوص الشعرية المقررة، فلما جاء دورى وتلوت

مجودة ما اختاروا لى من سورتى النساء والنور، سئلت عما أحفظ من النصوص الشعرية، فكان جوابى أن سألت: من أى عصر؟

وعجب الممتحنون بسؤالى، ثم طلبوا نصا من العصر الجاهلى فأنشدتهم أبياتا من معلقة طرفة بن العبد، ومرثية لمهلهل بن ربيعة التغلبى فى أخيه كليب.

قالوا: أسمعينا شيئا من شعر صدر الاسلام

فبادرت أنشد لامية كعب بن زهير • بانت سعاد•

ثم ما زالوا ينتقلون بى من عصر إلى عصر وهم فى دهشة من حفظى، حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث فأجاتهم بسؤالى:

ـ من شعرى أو من شعر سواى؟

ولم ينسنى مر السنين، ما بدا عليهم من عجب، وقد قال أحدهم:

ـ إن كنت شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدك.

وأنشدتهم قصيدة لى «فى الحنين إلى دمياط» مطلعها:

دمياط حبك حركت أشجانه   آلام قلب فى الغرام مصفد

ثم أتبعتها أخرى: صورة شعرية لزوجة صياد خرج إلى البحيرة فى ليل عاصف..

ولم يبق لديهم ما يمتحنوننى فيه، فأقبلوا على يسألوننى عن وجهتى فى التعليم بعد نيل هذه الشهادة لكفاءة المعلمات

وكان أقصى ما يقف عنده الشوط الذى سرت فيه، إتمام الدراسة «بالقسم الإضافى فى معلمات بولاق» ومدته سنتان، تتخرج بعد الطالبات معلمات فى المدارس الابتدائية أو الأولية الراقية، على حين لا يتاح لحاملات شهادة الكفاءة إلا التعليم فى المدارس الأولية والإلزامية.

وأجبت عن سؤال السادة المتحنين:

ـ فى نيتى أن أعكف على تحصيل المواد المقررة على القسم الإضافى، ثم أتقدم من المنزل لأداء امتحانه النهائى..

فأنكروا ما سمعوا من جوابى، وزينوا لى أن أعدل عن هذا الطريق القريب، إلى طريق الجامعة، ففيها وحده المجال الرحب الذى يستحق أن أتعلق به وأسعى إليه:

وفى ظنى، أنى لم أكن حتى ذلك اليوم، قد سمعت عن الجامعة إلا كلمات مبهمة ترجمها بالزيغ والضلال، ولا تصورت أن هناك علوما أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر، وليس فى مكتبة بيتنا غير كتب علوم الإسلام والعربية، وليس فى بيت جدى بدمياط، سوى خزانة كتب ومخطوطات إسلامية، من مخلفات الشيخ الدمهوجى الكبير.

وإذ فهمت من كلام الأساتذة الممتحنين، أن الطريق إلى الجامعة يحتاج إلى زاد من اللغتين الانجليزية والفرنسية، عجبت

بدورى لشططهم فى تقدير طاقتى وعدتى، وإنى لمن فئة لم تدنسها كلمة من لغة الفرنجة!

وانصرفت، وليس فى نيتى إطلاقا أن أشغل نفسى بالتفكير فى هذه «الجامعة» التى زينوا لى الاتجاه إليها.

* * *

أتاحت لى أولويتى فى شهادة كفاءة المعلمات، فرصة اختيار المدرسة التى أعين للتدريس فيها. وكان المتوقع أن يرفض والدى احترافى للتدريس رفضا باتا، لكن زملاءه من أصدقاء الأسرة، تكاثروا عليه حتى أقنعوه بأن الوسيلة الوحيدة التى تجدى مع مثلى، هى أن يدعنى أجرب مهنة التدريس، فلن ألبث أن أزهد فيها وأصد عنها باختيارى دون إكراه منه لن يزيدنى إلا شغفا بالممنوع!

وكان يسعدنى أن أعود إلى مدرسة اللوزى بدمياط، معلمة فيها بعد أن كنت تلميذة بها، لكنى آثرت العمل فى مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة، لأقيم فى القسم الداخلى بها، بمنأى عن جو بيتنا المشحون بالضباب والدخان ومن ثم أستطيع أن أجد فى تحصيل المنهج المقرر على القسم الإضافى، استعدادا للتقدم بعد عامين، إلى امتحان إجازته.

وأقبلت من اليوم الأول على التحصيل، قانعة بالهدف الذى يبدو قريبا منى، دون أن يساورنى أى طموح إلى الطريق الآخر

البعيد، الذى ألقيت به عمدا فى طوايا النسيان، كيلا أبدد طاقتى بتطلع عقيم إلى منطقة السراب!

* * *

ومضى على عملى بالمنصورة عام وبعض عام، ملأت كل دقيقة منها بالتدريس نهارا، والتحصيل ليلا. وكنت كلما أجهدنى العمل المزدوج، روحت عن نفسى بمطالعة كتب من صنف جديد، غير الذى كان متاحا لى فى مكتبة بيتنا.

وأدين «لمكتبة السروى» فى المنصورة، بهذا الأفق الجديد الذى فتحته أمامى بأيسر جهد وكلفة، إذ كانت تتبع أسلوبا مبتدعا فى تأجير الكتب! يستطيع به القارىء أن يأخذ كتابا أو اثنين من مقتنيات المكتبة، ثم يردهما بعد مطالعتهما ويستبدل بهما كتابين غيرهما، نظير قروش معدودات. وأتاح لى هذا النظام، أن أقرأ فى العامين اللذين أمضيتهما بالمنصورة، كل كتب المنفلوطى المؤلفة والمترجمة، وكل روايات تاريخ الإسلام لجورجى زيدان، وجمهورية أفلاطون ترجمة حنا خباز، وأيام الدكتور طه حسين، والإلياذة ترجمة البستانى، وألف ليلة وليلة.. وغيرها من الصنف الممنوع، فى عرف بيئتى..

وحان الموعد المحدد رسميا لتقديم طلب أداء الامتحان لإجازة القسم الإضافى، فبادرت بإرساله بالبريد المسجل إلى مدرسة المعلمات فى بولاق، وبينى وبين الامتحان أربعة

أشهر تكفى لتثبيت الدروس التى حصلتها.. واستيعاب المواد المقررة..

غير أنى فوجئت بطلبى مردودا إلى من إدارة المدرسة، مع الاعتذار عن رفضه بأن اللوائح لا تجيز التقدم إلى امتحان القسم الإضافى من المنزل، وإنما هو حق للمقيدات فى المدرسة وحدهن..

* * *

ولبثت أياما وليالى، أغرى نفسى براحة اليأس وأروضها على الاستسلام..

لكنى عدت فذكرت ما مر بى من أزمات، وأطلت التفكير فيما صنع لى «الأستاذ الشيخ موسى قمر» عندما سقطت فى الكشف الطبى بنظارة عمى!..

وتعلقت به آمالى، وأنا آخذ القطار من المنصورة إلى القاهرة، فى إجازة مرضية، وفى تصورى أننى ما أكاد أصل فى صحبة الشيخ الجليل إلى سعادة مراقب تعليم البنات، حتى يأذن لى فى دخول الامتحان، بصفة استثنائية، إن لم تبررها ظروفى الخاصة، فلقد يكفى لتبريرها أنى كنت أولى الناجحات فى شهادة الكفاءة، للفوج الذى يوشك على التخرج من القسم الإضافى.

لكن الأمر جرى على غير ما توقعت:

صحبنى عمى «الأستاذ الشيخ موسى قمر» إلى سعادة المراقب الذى أصغى إلى قضيتى فى عطف واهتمام، ثم كان الحل البديل الذى اقترحه السيد المراقب، أن أعدل عن التمسك بدخول امتحان القسم الإضافى، وأتقدم بدلا منه إلى امتحان الشهادة الابتدائية، وهو مباح لمن شاء أن يتقدم إليه من طلبة المنازل.

ولم يدعا لى فرصة للتفكير أو التردد، إذ كان موعد تقديم طلب الامتحان ينتهى فى يومنا ذاك، وأمر سعادة المراقب فجىء لى باستمارة من ديوان الوزارة، وجلست فى مكتبه لكى أملأ خاناتها، فلما توقفت عند «اسم التلميذ باللغة الأوروبية» تطوع أحد موظفى المراقبة فكتبه لى على ورقة مستقلة، وكان على أن أنقله إلى «استمارة طلب الامتحان» كما أنقل الرسم!..

سألت فى حيرة:

ـ لكن كيف أؤدى الامتحان فى هذه اللغة، ولا علم لى بأى حرف منها؟..

وأجاب الشيخ موسى:

ـ لا بأس عليك، تستطيعين بشهادة مرضية تأجيل الامتحان إلى الدور الثانى فى شهر سبتمبر، وبيننا وبينه سبعة أشهر تتفرغين فيها لتعلم القدر المقرر على الشهادة الابتدائية من اللغة الإنجليزية، ولست فى حاجة إلى بذل أى جهد لتحصيل بقية

العلوم، بل تكفيك مراجعة سريعة لمواد الامتحان فى الشهادة الابتدائية.

وبادر رحمه الله فالتمس من سعادة المراقب أمرا بنقلى من مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة، إلى إحدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب فى القاهرة، قريبا من مسكن الأستاذ فى شارع الخليج المصرى، كى أمضى فترة الاستعداد للامتحان، مع ابنته «فتحية» التلميذة بالسنة الرابعة بالمدرسة السنية الابتدائية، ومعها أستطيع أن أراجع الدروس المقررة عليها للشهادة، على أن أنفرد بدرس خاص فى اللغة الإنجليزية.

ولم تمض أيام حتى كنت قد أتممت إجراءات النقل من المنصورة إلى القاهرة، واستقر بى المكان فى ضيافة أسرة الشيخ موسى قمر، وفى صحبة ابنته الصديقة العزيزة. وقد ألزمت نفسى فى درس اللغة الإنجليزية، حفظ قدر معين من مفرداتها يوميا، وفى حسابى أننى كلما تزودت بقدر كاف من مفرداتها، أمكننى التصرف فى الإجابة عن أسئلة الامتحان، بما تهيأ لى من قدرة على الانشاء.

وهكذا اتجهت، عن غير قصد، إلى ذلك الطريق الآخر البعيد الذى سمعت عنه لأول مرة فى طنطا منذ عامين، من أعضاء لجنة الامتحان الشفهى لشهادة المعلمات، فصرفت عنه بالى وقتئذ، يأسا من إمكان الوصول إليه..

ثم لما وجهت إليه، لم ألبث أن اكتشفت أن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته، يسير فى اتجاه مواز لا يلتقى أبدا مع الطريق الموصل إلى الجامعة، عبر المرحلة الابتدائية فالثانوية..

ولا أظن أننى ألتفت فى تلك السن الغضة ـ مع ضآلة خبرتى وتجربتى، وبعدى عن الحياة العامة ـ إلى لؤم ذلك الوضع الثنائى للتعليم. بل لم ألتفت كذلك إلى دعمه الطبقية الاجتماعية والاقتصادية بطبقية عقلية وفكرية، تجعل المقدرة المالية وحدها جواز المرور عبر المراحل الابتدائية والثانوية والعالية، وتتفاوت بها: حظوظ أبناء الأمة وفرص تعليمهم ومجال عملهم بعد التخرج، تفاوت ما بين الإقطاعيين والأجراء.

ذلك لأنى ما قصدت إلى دخول مدرسة ابتدائية أو ثانوية، بعد أن صدتنى التقاليد عنها وانتهى بى موقف والدى إلى اليأس منها. كل الذى شغلنى هو تحصيل المقررات المدرسية على كل مرحلة، ثم التفكير فى وسيلة أتسلل بها إلى لجان الامتحان للمراحل الموصلة إلى الجامعة، كما فعلت فى طريقى الأول.

هنالك أدركت أن المناهج التى درست عليها، سواء منها ما تلقيته فى بيتنا على أبى وزملائه المشايخ، وما حصلته باجتهادى من مواد الدراسة لكفاءة المعلمات والقسم الإضافى، كانت قد فصمتنا تماما عن الثقافة العصرية المتاحة لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية، كما حصنتنا ضد جرثومة لغات الفرنجة وزيغ العلم الحديث، فبلغت أقصى الشوط فى طريقى الأول من الكتاب والمدرسة الاسلامية إلى المدرسة الأولية والراقية، فمدرسة المعلمات والقسم الإضافى، ولم أعرف حرفا واحدا من لغة أجنبية، ولا شاهدت أى جهاز من الأجهزة المعملية التى يجرى عليها التلاميذ العصريون دروسهم العملية فى الطبيعة والكيمياء، ولا كان لى ولا لأمثالى ممن أخذوا طريق التعليم الأولى، عهد بكتاب من كتب العلوم الحديثة التى كانت محرمة على غير من يأخذون الطريق إلى الجامعة!

وتبين لى أن لا سبيل إلى الجامعة، إلا أن أعود على بدء فآخذ الطريق الآخر من أوله، وأسايره مرحلة بعد مرحلة..

وكدت أتراجع من بداية الطريق.

كنت قد جازفت ـ بعد قياس مستوى تلميذات المدرسة السنية الابتدائية ـ فدخلت امتحان الدور الأول للشهادة، وأديت امتحان اللغة العربية والحساب والجغرافيا والتاريخ، واثقة أن إجاباتى فيها تعطينى درجاتها النهائية، بحيث يكفينى بعد ذلك ـ وقد ضمنت تجاوز الحد المقرر لمجموع الدرجات ـ آخذ أدنى درجة للنجاح فى اللغة الإنجليزية.

وإذ كانت الفترة القصيرة التى تعلمتها فيها، لم تكف لاستيعاب قواعد اللغة (الجرامر) والإملاء، وضعت أملى كله فى موضوع الإنشاء، اعتمادا على قراءتى لكتاب «السندباد البحرى» المقرر علينا، واطمئنانى إلى إمكان إجابتى عن أى سؤال فيه..

وجاء سؤال الإنشاء، يطلب إلينا كتابة عشر جمل فى:

«كيف نجا السندباد من وادى الأفاعى؟» فألفيت الموضوع سهلا، غير أنى لم أكد أمضى فى كتابة جملة وثانية، حتى توقفت بغتة، أحاول عبثا أن أتذكر كلمة «نسر» بالإنجليزية!

والنسر هو بطل ذلك الفصل كله من قصة السندباد، بحيث كان من المستحيل أن أستغنى عن ذكره، فى ست جمل أو سبع من العشر المطلوبة.

وهممت بمغادرة قاعة الامتحان، وقد رسخ فى بالى أن الله سبحانه لا يريد لى أن أمضى فى ذلك الطريق!

وفيما أنا ألقى بقلمى الرصاص من يدى فى حركة يأس وقنوط، وقع بصرى فجأة على صورة نسر مبسوط الجناحين، مرسومة على قلمى، فما تمالكت أن هتفت فى دهشة وفرح:

- وجدتها!

وجدت كلمة نسر، محفورة بالإنجليزية تحت صورته على قلمى!

وأقبلت على ورقة الإجابة أكتب الجمل العشر، وفى يقينى أن الله معى.. على الطريق.

* * *

بعد عام واحد، تقدمت - من المنزل - إلى امتحان الشهادة الثانوية قسم أول. وقد استوعبت فى ذلك العام، كل المواد المقررة على سنواتها الثلاث، مع اشتغالى بتدريس أربع وثلاثين حصة فى الأسبوع، إلى جانب الأعمال الإضافية التى تثقل كاهل معلم المدرسة الأولية.

وفى ذلك الشوط، وجهت همى كله إلى تعلم اللغة الفرنسية مع اللغة الإنجليزية، وحفظ مقرر الكيمياء والطبيعة، فى المغناطيسية والكهرباء والحرارة، من كتب (إسماعيل باشا حسنين) الثلاثة، دون أن تكون لدى أدنى فكرة عن تجارب معملية يجريها تلاميذ المدارس الثانوية، بل دون أن أكون قد شاهدت أى جهاز من الأجهزة التى تزود بها معامل المدارس..

ومر امتحان اللغتين الأوربيتين بسلام، وإنما كانت العقدة فى امتحان الطبيعة:

فمن بين الأسئلة المطلوب الجواب عنها، فهمت سؤالا واحدا فحسب، وقدرت أنه يكفينى لأنجح به، لو أنى أجبت عنه إجابة صحيحة كاملة، تعطينى درجاته الست، الحد بالأدنى للنجاح فى المادة!

كان السؤال عن:

«طرق نقل الحرارة، مع ذكر خاصية الترمس فى حفظ الحرارة»

وأجبت عن الشق الأول، بما حفظته عن ظهر قلب من كتاب الطبيعة، عن: الحمل والإشعاع والتوصيل، ثم وقفت عند الشق الثانى، لا أفهم ما دخل الترمس. وقد حسبته البقل المعروف. فى سؤال عن الحرارة؟

وسألت مراقب اللجنة عما إذا كان هناك خطأ مطبعى فى الكلمة؟..

فأجاب فى حسم:

وحينئذ استنتجت أن أهل العواصم والمدن الكبرى قد يستخدمون الترمس فى ترطيب المياه الحارة، على نحو ما قرأت عن استخدام الحصى ونوى المشمش لتنقية المياه العكرة!

ولم أتردد فى الإجابة بهذا الاستنتاج الذى هدتنى إليه فطنتى!

وأيدته بالمشهود المألوف، من حرص باعة الترمس فى (عصارى الصيف) على رص قلل المياه فوق عرباتهم، اجتذابا (للزباين) بجرعات هنية من ماء رطبه الترمس ولطف من حرارته!

وخرجت من قاعة الامتحان، وأنا لا أشعر بأى قلق مما أجبت، إلى أن سألتنى إحدى الزميلات عن موضع اشتباهى فى كلمة «الترمس» التى سألت عنها مراقب اللجنة؟

ولم يفتنى أنها نطقتها بضم الميم، فحسبتها كذلك لهجة قاهرية! وقلت لها إننى لم أكن أعلم أن الترمس - بكسر الميم - يستعمل فى المدن لتلطيف الحرارة!

صاحت الزميلة فى دهشة:

أى ترمس؟ إنما السؤال عن هذا الترمس!

وأشارت إلى إسطوانة معدنية فى يدها، ثم فتحتها وصبت لى منها جرعة من شراب الليمون المثلج!

ولم أكن شاهدت من قبل هذا الترمس، ولا سمعت عنه قط..

سألتنى الزميلة «تحية ماهر»:

- ففيم إذن تعملون الشراب فى الرحلات الطويلة؟

قلت وأنا أذكر متاع أبى فى رحلته السنوية إلى الحرمين الشريفين:

ـ فى الزمزمية!

ولم أصدق أن الشراب المثلج الذى قدمته إلى من ترمسها، قد بقى فى حر شهر يونية، من مطلع الشمس إلى الظهيرة القائظة: لكن الزميلة أضافت، إنه لا يحتفظ بدرجة البرودة فحسب، بل يحتفظ كذلك بدرجة الحرارة للشراب الساخن، لمدى يوم كامل!

وتطوعت «تحية» بإعارتى الترمس إلى اليوم التالى، لأجرب بنفسى خاصيته فى حفظ الحرارة!

* * *

أنسانى العجب، سوء موقفى فى الامتحان وما يحتمل من رسوبى فيه. فلبثت بقية نهارى وأكثر ساعات الليل، أمام الترمس أجريه على سوائل متفاوتة فى درجة حرارتها، وأنا أعتقد أنه جهاز مسحور!

حتى إذا استيقنت من عجيب خاصيته فى حفظ الحرارة، تذكرت بغتة إجابتى المضحكة، فتعللت بأن لجنة التصحيح سوف ترأف بى وتجبر درجتى فى الطبيعة إلى الحد الأدنى للنجاح، إذا ما تجمعت فى كشف الرصد، درجاتى فى المواد الأخرى وأكثرها يصل إلى النهايات الكبرى أو قريب منها!

وبهذا التعلل، استطعت أن أكمل ما كان باقيا من مواد الامتحان!

ولعلى فى ذاك التعلل، كنت متأثرة برؤيا تجلت لى فيها عناية الله كما تجلت فى «قلم النسر» قبل عام!

ففى استعدادى لامتحان الشهادة الثانوية، قسم أول، عام ١٩٣٢ أفرغت جهدى فى تحصيل المقرر علينا من دروس الإنجليزية والفرنسية، وكتب الطبيعة والكيمياء..

وسرقنى الوقت فغفلت عن إحضار كتاب «تاريخ أوربا الحديث» المقرر على السنة الثالثة الثانوية، ولم أنتبه إلى ذلك حتى افتقدته قبيل الامتحان.

ولم يكف الوقت لاستيعاب كل ما فى الكتاب، فساورنى ليلة امتحان التاريخ شعور بالقلق، لم أملك حياله الا أن أفوض أمرى فيه إلى الله تعالى.

وأخذتنى سِنة من نوم، فرأيت فيما يرى الحالم أننى فى قاعة الامتحان اقرأ من ورقة التاريخ، أول سؤال فيها عن «مارتن لوثر وحركة الإصلاح الدينى»..

وصحوت من غفوتى، فلم أتردد فى مراجعة هذا الفصل الذى كان قد فاتنى من الكتاب، واثقة كل الثقة أن الامتحان فيه.

وحين وزعت علينا أسئلة التاريخ فى الصباح التالى، لم أعجب لصدق الرؤيا، وازددت يقينا بأن الله معى.. على الطريق..

من هنا كان أملى فى أن تجبر درجتى فى الطبيعة، وعشت على هذا الأمل حتى ظهرت نتيجة الامتحان، وقد رسبت فى الطبيعة، ولى حق إعادة الامتحان فيها بالدور الثانى، لارتفاع درجتى فى المجموع.

وأديته فى شهر سبتمبر التالى ونجحت فيه، لأروع بعد نجاحى بشائعة تناقلتها الزميلات، عن احتمال إلغاء امتحانى جملة، لأنى تقدمت إليه بعد عام واحد من نيل الشهادة الابتدائية، والمدة المقررة بمقتضى اللوائح، لا يجوز أن تقل عن ثلاث سنين!

وأسرعت إلى ديوان وزارة المعارف، أستعدى «سعادة مراقب تعليم البنات» على هذه اللائحة الظالمة التى لا يحل فى رأيى، أن تطبق على تلميذة مثلى تحمل شهادة الكفاءة للمعلمات وتمارس بها التدريس فى مدارس الوزارة. وكنت قد عرفت الطريق إلى سعادة المراقب، فى أزمتين سابقتين!

وفى مكتبه بالوزارة، وجدت عددا من رجال التعليم، لم يكادوا يسمعون قصتى حتى راحوا يتندرون بحكاية «الترمس» التى كانت فكاهة الموسم فى لجان تصحيح الامتحان!

ورب ضارة نافعة!

لقد كشفت هذه الفكاهة للأستاذ المراقب عن المشقة التى أكابدها فى عبور الطريق التعليمى، فبادر من فوره وأمر بنقلى من وظيفة معلمة بالمدارس الأولية، إلى وظيفة كاتبة بكلية البنات

للجيزة، وتفضل فاتصل بالكلية تليفونيا، ليوصى ناظرتها السويدية «مدام برج» بتدريبى على اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وإتاحة الفرصة لى، لدخول المعمل فى بعض ساعات فراغى من العمل. كما تم ترتيب إقامتى بالقسم الداخلى فى الكلية، مقابل مشاركتى فى الإشراف على عودة الطالبات الخارجيات إلى بيوتهن فى سيارة المدرسة.

* * *

وعملت «مدام برج» بالوصية: فبدأت فى التحدث معى من اليوم الأول باللغتين الإنجليزية والفرنسية، ولم يكن سبق لى أن عرفت أى أجنبى أو تحدثت إليه!..

ثم كان أول ما عهدت إلى به من العمل، كتابة خطاب رسمى باللغة الإنجليزية، فى بعض الشئون الإدارية. فلما حملته إليها وأنا أتوقع أن أحظى بإعجابها لتفننى فى الإنشاء، لم تزد على أن شطبت بقلمها الأحمر، على كل ما أنفقت يومى فى كتابته، وردت الخطاب إلىَّ، آمرة أن أكتبه فى سطرين اثنين!

وزادت فاستدعت سكرتيرة الكلية «مس فريدة قربان» وعهدت إليها فى أن تهذب من ملبسى شبه الريفى، وتدربنى على أنماط السلوك فى الحضر، لأتكيف مع الوسط العالى للكلية:

ومضت بى «مس قربان» إلى حجرتى الخاصة، فأمرتنى فورا بانتزاع «المشط البراق» الذى يمسك شعرى أن يرسل. ثم فتحت

خزانة ملابسى فاختارت منها ثوبا قطنيا بسيطا كنت أنوى ألا أرتديه إلا فى ساعات خلوتى، وقالت إنه وحده الذى يناسب الكلية، دون ثيابى الأخرى التى تفننت خياطتنا بدمياط فى حياكتها وزخرفتها!

على أن الموقف لم يبلغ ذروته من القسوة، إلا حين دعتنى «مس قريان» لتناول وجبة الغداء فى مطعم الكلية الأنيق الفخم، حيث يهرنى البريق الساطع من أدوات المائدة الفضية والبللورية. ولم أكن حتى ذلك اليوم، قد استعملت فى تناول طعامى أدوات عصرية، ومن ثم اعتذرت عن عدم الأكل بوعكة صحية طارئة، تحرجا من ارتباكى فى استعمال أدوات المائدة، واشفاقا على ميزانيتى الضئيلة، من ثمن ذلك الطعام الغالى!

وأقمت على ذلك نحو أسبوعين، لم أذق فيها طعام الكلية، وإنما اكتفيت ببعض شطائر من الفول والطعمية والجبن، تعودت أن أتزود بها فى طريق عودتى بعد توصيل التلميذات بسيارة المدرسة، حيث كنت أتخلف ساعة فى منزل الشيخ موسى قمر، لتلقى درس فى اللغتين الإنجليزية وآخر فى الفرنسية، قبل أن آخذ طريقى إلى الكلية سيرا على قدمى، من شارع الخليج إلى كوبرى قصر النيل فكوبرى بديعة - الجلاء - توفيرا لستة مليمات يتكلفها ركوب الترام..

* * *

حتى استرابت «مس قريان» فى إصرارى على عدم تناول الطعام بالكلية، مع ما يبدو من سلامة صحتى! وتطوعت فعرضت على أن تقدمنى إلى «مسز جارفس» كبيرة الطبيبات، فى زيارتها الدورية القادمة للكلية!

وأحسست كأن عقربا لسعنى!..

فما كنت قد نسيت قط صرامة موقفها منى فى الكشف الطبى، ولعلها لو رأتنى موظفة فى الكلية، لأمرت بفصلى فورا من الخدمة!

ولم أجد أمامى سبيلا إلى الفرار من «مسز جارفس» واتقاء مواجهتها، إلا أن أصارح «مس قريان» بأن الجنيهات الستة التى أتسلمها مرتبا شهريا، يستهلكها، حتى آخر مليم منها، ثمن الكتب وأجر الدروس الخصوصية فى اللغتين الأوروبيتين. وأما المبلغ الضئيل الذى تقتطعه أمى من مصروف البيت لتعيننى به، فلا يكاد يقوم بالزاد البسيط الذى أتبلغ به، فضلا عن خجلى من الجلوس إلى مائدة الطعام بالكلية، وليس لى أدنى خبرة باستعمال أدواتها الفاخرة.

وكان الرد العجيب أن موظفات الكلية لا يدفعن أى أجر لما يتناولن من طعام!.. وأما مسألة استعمال أدوات المائدة فيحلها أن تتناول طعامنا فى غير المواعيد المحددة للطالبات، إلى أن يتم مرانى على الطريقة العصرية لتناول الطعام وسلوك المائدة!

وأحسست بفرحة الفرج بعد الضيق، تشوبها حسرة على ما فاتنى من غذاء شهى وسخى، طوال الأيام التى عشت فيها على الفول المدمس والطعمية والجبن القريش!

فى ذلك العهد، عاودنى الشوق القديم إلى الكتابة فى الصحف، وكنت أثناء إقامتى القصيرة بمدرسة المعلمات، طالعت فى مكتبتها أعدادا من مجلة النهضة النسائية، فبدا لى أن أبعث إليها بقصيدتى فى «الحنين إلى دمياط» فلما ظهر العدد التالى وقصيدتى منشورة فيه، تابعت إرسال قصائدى ومقالاتى، والمجلة الغراء ترحب بها وتفسح لها صدرها!

ثم لما نزحت إلى العاصمة، لم أكد ألتقط أنفاسى بعد الشوط المجهد، حتى تفضلت صاحبة المجلة «السيدة الحاجة لبيبة أحمد» فدعتنى إلى زيارتها فى دار المجلة بحى عابدين. ولبيت الدعوة على استحياء وأنا أتهيب مقابلة هذه السيدة التى تنتمى إلى الطبقة الراقية، وكان قد بلغنى من أنباء حياتها، أنها تزوجت أول مرة من «مرتضى باشا» ثم من أحد رجال أسرة «الهرميل» وأن إحدى بناتها، كانت رحمها الله زوجة لعبد الستار الباسل بك، خلفا لفقيدة الأدب «ملك حفنى ناصف، باحثة البادية».

وأسرتى ليس فيها باشوات ولا بكوات!.. لا من جهة أبى، ولا من جهة أمى! وإنما قصارى ما كنا نعتز به، نسبنا من جهة أبى فى البيت الحسينى الشريف، ونسب أمى فى سلالة الشيخ إبراهيم الدمهوجى، شيخ الجامع الأزهر!

لكن حرارة استقبال السيدة الكريمة إياى، أذابت تهيبى. فكررت زيارتها أحمل مقالاتى معى، وأقوم بالمراجعة اللغوية لمواد المجلة، وقد تكلفنى السيدة الجليلة أحيانا كتابة مقالها الافتتاحى، فأعد هذا التكليف شرفا لى، وشهادة لقلمى!

ثم بدا للسيدة الجليلة أن تستغنى - لأسباب لم أسأل عنها - عن خدمات رئيس التحرير «الأستاذ محمد صادق عبد الرحمن» ومدير الإدارة «السيد عقل» وعهدت إلى فى القيام بعملهما معا، من عدد أكتوبر سنة ١٩٢٣، وقد أدركت بفطنتها حاجتى إلى مورد إضافى، أستعين به على مواجهة نفقات تعليمى لكى أعفى أمى من المبلغ الذى تقتطعه لى من نفقات بيتنا المحدودة المتواضعة..

وكنت من قلة الخبرة بالدنيا والناس، بحيث رحبت بتلك الفرصة، وأكبرت من السيدة المجرية أن تجد فتاة من الأقاليم مغمورة مثلى، تعبر المرحلة الثانوية للتعليم - أهلا لأن تتولى عبء المجلة كله، نظير أربعة جنيهات فى الشهر، كانت فى تقديرى مكافأة سخية على كتابة بريد المجلة، وإعداد موادها للطبع،

وتصدير كل عدد منها بمقال افتتاحى أتفنن فى إنشائه وأوقعه باسم السيدة الكبيرة صاحبة المجلة! ثم أحمل المواد كل شهر إلى مطبعة حجازى بالجمالية، فأعود مرة فأصححها، وأخرى لأتسلم أعدادها ـ نحو ألفين ـ مطبوعة وأنقلها فى عربة خيل إلى مقر المجلة فى حى عابدين، وأكتب عناوين المشتركين على غلافها، ثم أحملها على دفعات إلى صندوق بريد المطبوعات على ناصية شارعى خيرت والمبتديان. وأتابع حركة البريد وتسديد الاشتراكات، وأحتفظ بما يرد منها حتى تعود السيدة الحاجة من رحلتها السنوية إلى الحجاز، حيث اعتادت أن تقضى هناك نحو ستة أشهر، مطمئنة إلى إخلاصى فى القيام على شئون مجلتها، وراضية كل الرضا عما أكتب باسمها من مقالات افتتاحية رصينة!

وكنت كذلك، راضية تماما عن هذه التجربة التى أشبعت هوايتى القديمة للكتابة، ودربتنى عليها، وهيأت لى مع ذلك كله مكافأة شهرية ثابتة، تبلغ ثلثى المرتب الذى أتقاضاه من وظيفتى الرسمية فى كلية البنات!

وتقدير السيدة الكريمة لأسلوبى، هو الذى أغرانى بأن أرسل بعض قصصى إلى الصحف اليومية وإلى مجلة الهلال التى كانت فى ذلك الحين تنشر لأعلام من كتاب الجيل. وقد نشرت لى صحيفتا البلاغ وكوكب الشرق ما أرسلت إليهما من قصص

قصار، وأما مجلة الهلال فأعادت قصتى إلى، مع بطاقة اعتذار باسم «اميل زيدان»

فى تلك الأيام على التحديد، عندما بدا لى أن أتجاوز لقلمى نطاق المجلة الشهرية المحدودة التوزيع - حيث لا احتمال لأن تصل إلى محيط والدى والأسرة - إلى الصحف اليومية والمجلات الكبرى، فكرت فى التستر وراء اسم مستعار، لئلا يعلم أبى بالأمر فيغضب وينكر ويصدر قرارا يحرم فيه على، مكاتبة الصحف والاتصال بها، وذلك مالم تكن تقاليدالبيئة والجيل، تسوغه لحريم العلماء!

ولم يطل بى التفكير فى اختيار الاسم المستعار، بل كان أول ما خطر على بالى هو أن أنتمى إلى الشاطئ، مهد مولدى وملعب طفولتى ومدرج حداثتى ومجلى تأملاتى، والمسرح الذى شهد مأساة فاجعة قيدتنا إليه بقيود لا فكاك منها..

وفيما كنت أمارس هواية الكتابة، وأحمل عبء عملى فى كلية البنات وعب تحرير «مجلة النهضة النسائية» وإدارتها، تابعت تحصيل المواد المقررة على طلاب البكالوريا وتقدمت لامتحانها من المنزل.

وهكذا مشيت على الدرب الوعر، فكلما قطعت شوطا منه تقدمت إلى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستى كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لى..

وخفية كذلك عن الأوضاع الطبقية والنظم التعليمية واللوائح المدرسية، التى أقامت الحواجز والسدود، فى طريق مثلى، إلى الجامعة!

حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب، من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة، إلى باب الجامعة أحمل شهادة (البكالوريا أدبى) التى ظفرت بها صيف عام ١٩٣٤. مع قلة من الناجحين: من منازلهم...

وهناك ألفيت الباب موصدا فى وجهى بقضبان من فولاذ!

كنت على يقين من استحالة دخولى الجامعة طالبة منتظمة، كيلا أبوء بلعنة من غضب والدى الذى ما شككت فى أنه بحيث يبرأ إلى الله منى لو فعلتها!

لكنى طمعت فى أن ترق الجامعة لحالى بعد أن تسمع حكايتى، فتأذن لى فى تحصيل مقررات قسم اللغة العربية، على أن أؤدى تباعا كل عام، امتحان السنوات الأربع لدرجة الليسانس.

وهذه هى اللوائح الجامعية لا تعترف بنظام الانتساب!

وهؤلاء هم حراس اللوائح، يتبسمون ضاحكين من قولى، ويتندرون بسذاجتى التى ابتدعت فكرة التقدم للامتحانات الجامعية (من منازلهم)!

ولمدى عام كامل، بقيت واقفة تجاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم!..

لم يكن قد بقى لى إلا أن أنكص على عقبى وأكر راجعة من حيث أتيت..

لكنى لم أفعل !

فهل كان إصرارى على الوقوف هروبا أحمق، من واجهة صدمة الخيبة بعد كل الذى كابدت؟

أو كان استجماعا لقواى، تأهبا للجولة الجديدة فى المعركة، بعد أن أهدتنى الجولات السابقات؟

لم أكن أدرى على وجه اليقين.

وإن أحسست أن هناك قوة خفية وراء أبعاد المنظور، تقيدنى إلى ذلك الباب الموصد، وتحول بينى وبين طريق الرجوع!

* * *

وفى عام الانتظار الطويل، تعرضت لجواذب خارجية مضادة، كانت تشدنى بعيدا عن باب الجامعة، وتزين لى الانصراف عنه:

فهناك فى بيتنا،

كان أبى قد استنفد طاقته من طول البال، ولم يعد فى إمكانه أن يرخى لى مزيدا من حبال الصبر ـ بعد أن يئس من احتمال زهدى فى العمل المدرسى وتوبتى عن إثم الخروج من البيت ـ فهو لا يكف عن الكلام فى موضوع خطبتى لشاب من أبناء زميله

«الشيخ إبراهيم مصبح» من كبار الشيوخ العلماء، رآه والدى كفئا لمصاهرته!

وفى مجال العمل،

كانت شهادة البكالوريا قد رفعت وظيفتى إلى سكرتيرة لكلية البنات، أرقى معهد حكومى لفتيات الطبقة الراقية، كما رفعت مرتبى الشهرى من ستة جنيهات إلى سبعة ونصف، لا أدفع منها قرشا، مقابل إقامتى وطعامى بالكلية.

وفى الحياة العامة،

كانت أضواء المجد الأدبى تلوح على أفقى، منذ نشرت لى «جريدة الأهرام» فى صفحاتها الأولى مقالاتى عن الريف المصرى وقضية الفلاح، وقد توثقت صلتى بالجريدة الكبرى من يوم أن أرسلت إليها مقالى الأول، صيف سنة ١٩٣٥، فلم تكتف بنشره فى صفحتها الأولى، بل اتصل بى سكرتير التحرير «الأستاذ نجيب كنعان» يدعونى لمقابلة صاحب الجريدة «جبرائيل تكلا بك» الذى رحب بى وضمنى إلى أسرة التحرير، بتوصية من «الأستاذ أنطون الجميل» الذى قرأ مقالى قبل سفره إلى أوروبا فى ذلك الصيف، وأشر عليه بالنشر، وأوصى بالبحث عنى وضمى إلى أسرة التحرير.

ومن عجب أنى عصيت على كل تلك الجواذب والمغريات، وبقيت واقفة حيث انتهى بى الشوط عند باب الجامعة الموصى،

لا أبغى عنه حولا، وكأنى مشدودة إليه بأمراس لا تنحل، وقيود لا تلين !.

وعبثا حاولت الرجوع إلى الطريق الأول، التماسا لرضا والدى وهو أعز ما أدخره لدنياى والآخرة...

وعبثا حاولت التشاغل بالتطلع إلى الأفق الجديد الذى يعدنى بالشهرة والمجد الأدبى..

وهاجس خفى يلقى فى روعى، أننى فيما سلكت من طريق إلى الجامعة، وفى إصرارى على الوقوف عند بابها المغلق، إنما أنفذ مشيئة عليا لا سلطان عليها لأحد من البشر!

والأمر فيما بقى، متروك لتلك المشيئة العليا، التى تملك وحدها أن تقرر مصير هذه الجولة، وتوجه إرادتى إلى حيث أراد الله لى! وكان هذا الهاجس يمنحنى طاقة من العزيمة والصبر، فى دوامة القلق والحيرة، فيحمينى من السكون إلى راحة اليأس.

كما كان يردنى إلى شىء من سكينة النفس وراحة الضمير، كلما ساورنى الخوف من عاقبة مخالفتى، خفية، أمر والدى التقى الصالح، واتجاهى إلى طريق غير الذى رضيه لى ووجهنى إليه.

ولو شاء سبحانه لصرفنى عن هذا الطريق المسدود، ولما حدت من الطريق الأول الذى خطه لى أبى، مذ كنت وليدة فى المهد.

وما كنت، لولا مشيئته تعالى، لأستطيع أن أجتاز وحدى تلك المفاوز الضيقة والسدود الصعبة والمنحنيات الخطرة، على طريق تائه المعالم ملتوى المسالك خابى المنارات..

كلا، ولا كان فى طاقتى أن أقتحم التيه الموحش فى خضم الدنيا، بلا زاد للرحلة مع المخاوف والهواجس والظنون.

غير إخلاص البذل فى طلب العلم، وهذا اليقين بأن الله سبحانه معى فى مسعاى..

* * *

إلى هنا، ينتهى بى الشوط الطويل المجهد الذى قطعته على دربى، من جوار المعهد الدينى فى جامع البحر على الشاطىء الشرقى للنيل بدمياط، إلى وقفتى عام ١٩٣٥ أمام باب الجامعة الموصد، لا أستطيع أن أنفذ منه..

ولا أملك فى الوقت نفسه أن أحيد عنه وآخذ طريق الرجوع..

وعنده ينتهى هذا الفصل من حكايتى، قبل أن نلتقى!

فى الطـريق إليه!

لم أكن أدرى كنه هذه القوة القاهرة التى تدفعنى إلى أن أحيد من الطريق الذى حدده لى والدى وأعدتنى له بيئتى، إلى ذلك الطريق المضاد الذى يصل إلى «الجامعة» وهى التى ينفر قومى من مجرد سماع اسمها، ويرثون لكل من جذبت إليها من الطلاب، وكأنها بدعة منكرة أو رجس من عمل حزب الشيطان!

وربما تناهى إليهم نبأ عن بعض ما يدرسون فى الجامعة من علم، فيلوون رءوسهم وهم يحوقلون، ويستغفرون لذنب الذين جنوا على شباب الأمة فصرفوهم عن العلم الحق فى تراث السلف الصالح، وعلموهم ظاهرا من الحياة الدنيا، وألقوا بهم صيدا سهلا بين ذرائع الزيغ والضلال!

والغريب فى الأمر أننى لم أجد من طريقى الأول زهدا فيه أو ضيقا به ونفورا منه، بل لعلى كنت أقرب إلى الزهو بما أتيح لى من اتصال به والمباهاة بما استطعت اجتيازه من مراحله والاعتذاز بما نهلت من نبعه السخى.

ولم يحدث قط أن فتنت عن قديمى، بالجديد الذى تعلمته من كتب العلوم العصرية لمراحل الطريق إلى الجامعة ، بل كنت كلما تقدمت خطوة على الطريق، ازددت إدراكا لقيمة الرصيد الثمين الذى يمنحنى سمة أصالة وتفرد بين بنات جيلى !

لقد استطعت بما تزودت به من طاقة على الدرس أن أحصل (علوم المدارس) وأؤدى أربعة امتحانات عامة بنجاح، وما من واحدة من (طالبات المدارس) تستطيع أن تقرأ فقرة واحدة من كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه، التى درستها فى بيتنا. ولطالما حرصت على التلكؤ فى قاعات الامتحان الشفهى، بعد دورى فى أدائه، لأتفرج على الزميلات وهن يتعثرن فى تلاوة آية قرآنية من قصار السور، ويقرأن النص من الشعر أو النثر قراءة مضحكة مبكية، تمسخ النص أعجميا.

كذلك لم أكن بحال ما، أستهين بمخالفتى لما يريد لى والدى العالم الورع المتصوف، بل لعلى كنت أؤثر أن أموت ولا أعصى له أمرا فى السر أو العلن، وقد كانت بيئتى تتناقل حكايات عن كراماته ومناقبه، ويكفى أن أذكر منها، مالم أنسه قط، من محنة جد والدتى، وقد عشتها معه، أسمع من أهل البلدة أن الحادث الأليم لم يكن إلا عاقبة غضب أبى، فتضنينى الحسرة وترهقنى عقدة الشعور بالذنب.

ويروعنى أننى، مع ما أعلم من سر أبى الباتع، أمضى فى طريق لا يرضى عنه، وأحيد عما يرضيه !

فى ذلك الجو النفسى المشحون بهواجس القلق والخوف، المثقل بعقدة الإحساس بالذنب، تابعت خطواتى إلى الجامعة وأنا أحاول أن أستجلى كنه تلك القوة الخفية التى تسيرنى وتوجهنى، فلا أجد لها تفسيرا إلا أنها إرادة الله الغالبة ومشيئته النافذة.

وطال بى الوقوف على باب الجامعة، دون أن يتخلى عنى إيمانى بأن «الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شىء قدرا».

* * *

وانقضى العام كله، وباب الجامعة موصد فى وجهى.

وجاء فوج جديد من حملة البكالوريا عام ١٩٣٥، يقدمون أوراق التحاقهم بالجامعة. فوقفت أرقبهم ضائعة الحيلة، حتى إذا حل اليوم الأخير المحدد لقبول أوراق الالتحاق، ذاب جمودى بغتة، وتحركت فأخذت مكانا لى فى نهاية صف المتقدمين، كل همى أن أقيد اسمى فى كلية الآداب قبل أن تفوت الفرصة، ثم أدع ما بعد ذلك لمشيئة الله تعالى..

وهون الموقف على، مافهمته من أن الأساتذة هم الذين يقررون ما إذا كان الطالب قد استوفى النسبة المقررة لحضور المحاضرات أو لم يستوفها، ويقتصر عمل الإدارة على الإجراء

التنفيذى، فى الأذن للطالب بأداء الامتحان أو حرمانه منه، تبعا لما يقرره الأساتذة.

ومن ثم اتجهت محاولتى، إلى أن أتسلل من مسكنى القريب فى كلية البنات بالجيزة - قبل انتقالها إلى الزمالك - على بعد خطوات من كلية الآداب، فأحضر لكل أستاذ عددا من الدروس، يكفى لإثبات وجودى! وكنت على يقين من أن الأمر بالنسبة إلى مواد اللغة العربية والدراسات الإسلامية، أيسر من أن أشغل أستاذ، ثم أفرغ منه إلى يوم الامتحان!

لكن فريقا من زملائى، تحدونى أن أستغنى عن كلمة واحدة من دروس الأستاذ الخولى فى البلاغة والتفسير، على مدى السنوات الأربع! فكنت أدارى شعورى بالرثاء لضعفهم، وأقابل تحديهم بنوع من الاستخفاف!

وكنا فى السنة الأولى، نحضر مجتمعين فى المدرج الكبير، كل المحاضرات المقررة علينا فيما عدا اللغة العربية واللغات الإنجليزية والفرنسية واللاتينية، التى توزعنا فيها أقساما فى محاضرات خاصة.

ولم يكن من حظى أن أتتلمذ على الأستاذ الخولى فى السنة الجامعية الأولى، لكن زملائى الذين درسوا عليه، ومعهم كل طلاب قسم اللغة العربية،، لم يكونوا يملون الحديث عنه، والشكوى من صرامة منهجه وجبروت شخصيته، وقسوة مؤاخذته

على أى خلل فى المنطق أو خطأ فى التفكير أو قصور فى التعبير. فأتمنى لو أن ظروفى أسعفتنى على حضور دروسه، كى أبهر هؤلاء الطلاب بما تصورت، لفرط سذاجتى وغرورى، أننى بلغته من علم أستاذهم الكبير!

لقد حضرت عددا من المحاضرات الجامعية فى النحو والعَروض والأدب والتاريخ الاسلامى، فما وجدت قط جديدا لم أكن قد تعلمته فى مدرستى الأولى بالبيت. وتفضل الأستاذ الجليل «مصطفى السقا» فأعفانى من حضور درسه فى النحو والصرف، لما رأى من تفاوت مستواى عن بقية المجموعة التى كان يدرس لها. كما رحب «الدكتور حسن إبراهيم حسن» بعذرى فى التخلف عن محاضراته بسبب ظروفى القاسية، بعد أن حضرت له درسين جرؤت فيهما على تصحيح آيات من القرآن الكريم كانت تتلى من كتاب السيرة على غير وجهها الصحيح فى التلاوة، معتذرة بحرمة كلمات الله، عن جرأتى فى رد أى خطأ فى قراءتها.

فماذا عسى الأستاذ الخولى أن يقدمه لى فى البلاغة والتفسير، وقد تلقيتهما على شيوخ كبار من علماء هذه البضاعة؟!

وقيل لى: إنه صاحب منهج!

فهززت رأسى فى غير مبالاة، وكلمة المنهج لاتعدو عندى أن تكون تسمية محدثة لما درجنا على تسميته بالمذهب أو الطريقة، ومبلغ علمى أن «كل شيخ له طريقة» وإنما يفتتن غيرى من

الطلاب بكلمة المنهج الرنانة الفخمة، لأنهم لم يقرأوا شيئا لشيوخ البلاغة وأعلام المفسرين، من أمثال «السكاكى والقزوينى والسبكى، والطبرى والزمخشرى والرازى والقرطبى وأبى حيان..» هؤلاء الذين طالت صحبتى لهم فى كتبهم الصفراء التى يعيى طلاب الجامعة أن ينظروا فيها!.

وكنت فى المرات القليلة التى ترددت فيها على الكلية خلال العام الأول، ألمح «الأستاذ الخولى» من بعيد بين حين وآخر، فى فى ردهات الكلية وأبهائها، بزيه اللافت وسمته المهيب وملامحه المتفردة، يحف به دائما عدد من تلاميذه شبه مسحرين، وقد أخذوا معه فى حوار متصل..

فلا أتصور بحال ما، أن هذا الأستاذ غريب عنى، وأظل أفكر طويلا: أين ومتى يا ترى لقيته من قبل؟

ثم لا أجد تعليلا لهذا الشعور الواثق من سبق معرفتى به، إلا أن أفترض أنه ينتمى إلى بيئة كتلك التى أنتمى اليها، وقد وصل مثلى إلى الجامعة، عن غير طريقها المباشر.

وازداد يقينا بأن علمه الذى بهر الطلاب فى الجامعة، مستمد من نفس النبع السخى الذى طالما نهلت منه حتى خيل إلى أنى ارتويت!

وأملى لى الزمن عاما بأكمله، سادرة فى أوهام غرورى بما عندى من بضاعة القوم، مباهية بقديمى الأصيل الذى ما

تصورت أن الأستاذ الخولى يمكن أن يضيف إليه جديدا من عنده.

ماضية فى طريقى إليه، وما أرتاب فى أنى عرفته من قبل أن ألقاه!

فى منطقة الضباب!

ما أزال أكتب من بعيد.

مطلة من وقفتى على الجسر، على أثار خطاى قبل أن ألقاه.

إذ أغذ السير فوق دربى، عبر المفاوز الحرجة والمنحنيات الخطرة، فى طريق تائه المعالم خابى المنارات.

بغير زاد إلا الهواجس والمخاوف والظنون

وبغير دليل إلا اليقين بأنى أسير موجهة بمشيئة عليا، اصطفتنى لتجربة صعبة تمتحن بها طاقتى على الصمود والاحتمال.

وتبلو مدى استعدادى لاجتلاء السر المحجب، المضنون به على غير أهله !

* * *

ولم أستبعد، بعد عامى الأول فى الجامعة، أن تكون تلك التجربة هى أن أتعرض لما يخشاه قومى من فتنة الجامعية وغوايتها.

ابتلاء لجلاء بصيرتى وقدرتها على التمييز بين الجوهر والعرض،

لأعود فأسلك طريق الحق، أرهف حسا وأصفى وجدانا، وأقدر على احتمال ما يكابده «أهل الطريق» من مشاق الرياضة وتكاليف المجاهدة!

وكنت حتى تلك المرحلة، أتعامل مع الدنيا بمنطق بيئتى المتصوفة، وأتلقى العلم بعقليتها، وأمارس الحياة بذوقها ومزاجها، وأفسر الوجود بمنهجها الإشراقى المهم..

ولم يخذلنى هذا المنطق فيما واجهنى من مواقف حرجة وأسرار غامضة، فى طريقى إلى الجامعة..

كمثل موقفى يوم تهيأت لمغادرة قاعة الامتحان فى الشهادة الابتدائية، فى يأس وقنوط، ثم انفرجت الأزمة بقلم النسر..

ومثل الرؤيا الصادقة فى امتحان التاريخ بشهادة الكفاءة الثانوية، لم أعجب لصدقها، وإنما كان عجبى لهؤلاء الذين يجحدون منطقنا المهم، فى آفاقه الرحبة وراء أبعاد الواقع.

إلى ذلك المدى، كنت متأثرة بعقلية بيئتى، خاضعة لسلطان وجدانها، مأخوذة بمنطقها..

فلما وصلت إلى الجامعة، تطلعت إلى جديد علمها وفى حسابى أنها سوف تحاول أن تشدنى بعيدا عن منطقة الجاذبية للقديم الذى جئت به!

وتوقعت أن أواجه عداءها السافر لمنهجنا الإشراقى، وأن تقدم لى من محدث منهجها فى المعرفة، ما تحاول به أن تنسخ المنهج الذى زودتنى به بيئتى وراضتنى عليه..

لكن عاما كاملا مضى، دون أن تقدم لى الجامعة ذلك البديل المتوقع.

وكان حصاد ذلك العام الأول: عزلة نفسية وفكرية عن هذه الجامعة التى تلوح من بعيد «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا».

وما أدرى، هل هل كانت الجامعة مسئولة وحدها عن تلك العزلة؟ أو أننى التى جئتها كحصنة من بيئتى الأولى بمناعة تجعلنى أعصى على هذه البيئة الجديدة وأقاوم الاستجابة لها؟

أيا ما كان الأمر، فالذى لم أشك فيه هو أن الجامعة عجزت فى ذلك العام الأول عن أن تشدنى إليها.

وأحسبها كذلك أرهفت ما فى أعماق ضميرى من حرص كامن على ألا أخون «العهد» الذى أخذته على والدى. وشحذت خفى تأهبى لمقاومة كل سحر من بضاعة العاصمة التى نزحت اليها من الأقاليم، وأقمت حواجز عازلة بينها وبين ذاتى، كى أصونها من المسخ والتشويه ولا أفقدها فى ضجيج الزحام!

وتضاعف شعورى بالغربة الفكرية، وأنا أتنقل بين قاعات الدرس على مدى العام، أحاول عبثا أن أكتشف مالدى الجامعة،

مما عسى أن ينسخ قديمى الأصيل، أو يقدم لى بديلا مقنعا من المنطق الإشراقى الصوفى الذى لم يخذلنى فيما مضى.

والذى كنت أخشاه من ضغطة الصراع بين عطاء بيئتى وجديد الجامعة، لم يلبث أن انجلى عن معركة وهمية فى منطقة السراب!

فبقدر ما أعطتنى بيئتى منهجها ميراثا وعقيدة، قدمت لى الجامعة منهجها المحدث تلقينا آليا لاينفذ إلى ماوراء ظاهر السمع!

وبقدر ما زودتنى بيئتى بثقافتها دراية ووعيا، ورسختها فى عقليتى بسلطان الوجدان المؤمن، وقوة اليقين بأنها العلوم التى يعرف بها الإسلام ويصح الدين.

عرضت الجامعة علومها إلقاء وترديدا، بمنأى عن منافذ التأثر الوجدانى ومداخل الاستجابة الروحية..

وبقدر ما نجحت مدرستى الأولى فى وصل دوائر معارفها والربط بين علومها بما يحقق لها من التكامل مايجعل كل علم فى خدمة العلوم الأخرى، ولايستغنى فى الوقت نفسه عن خدمة أى علم منها..

عجزت الجامعة عن إقناعى بوجود أى نوع من الصلة بين هذه المواد المقرر درسها علينا فى السنة الأولى، تلقيناها دوائر منفصلة منعزلة، لاتتقارب ولا تتماس، اللهم إلا ذلك التقارب

الشكلى الساذج الذى يضع درس اللاتينية إلى جانب درس الفلسفة الإسلامية فى جدول المحاضرات، أو تربطه وحدة القاعة التى تتلقى فيها درسا فى البلاغة العربية، يتلوه درس باللاتينية فى حروب يوليوس قيصر فى بلاد الغال، أو يفتعل مناسبة ملفقة لإقحام اسم «آرنولد» مثلا فى درسنا التاريخ الإسلامى فى عصر المبعث، أو إقحام اسم «نيكلسون» فى تأريخنا للأدب العربى القديم!

وبقدر ما قدمت لنا المدرسة القديمة معلميها وشيوخها، مجموعة متآلفة منسجمة لأسرة ذات طابع موحد، سمتا وزيا وعقلية ومزاجا..

عرضت علينا الجامعة أعضاء هيئة التدريس فى كلية الآداب، خليطا شاذا ينتمى إلى بيئات متباعدة متناكرة، ويحمل بصماتها الصارخة من التناقض والتنافر..

وخيل إلىّ، بعد أن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثانية من قسم اللغة العربية، أننى على وشك أن أصفى حسابى مع هذه الجامعة، بحيث لا يبقى بينى وبينها إلا أن أؤدى لها امتحانا ما بين عام وآخر، حتى أعبر المرحلة كما عبرت ما قبلها من مراحل..

دون أن أخشى محاسبة على حضور وغياب، فلقد اكتشفت أن نص اللائحة على نسبة الحضور، صورى معطل، فما كان يعنى

الإدارة أن تسأل عمن حضروا أو غابوا، وإنما كان الذى يعنيها فحسب، أن تستوفى دفع الرسوم والمصروفات، فلا يباح لطالب أن يدخل الامتحان، إلا بصك سداده لهذه الرسوم والمصروفات!

ولست أذكر عدد من حيل بينهم وبين دخول الامتحان، من رفاق دفعتى، لعجزهم عن سداد الرسوم الجامعية.

وإنما الذى أذكره ولن أنساه، أن زميلى عبدالحكم الجراحى» تخلف كذلك عن أداء الامتحان لعذر قاهر!..

سقط شهيدا عند «كوبرى عباس» برصاص الإنجليز..

وأريد للجامعة أن تستأنف الدراسة بها بعد مصرعه ومصرع زميله الشهيد عبدالمجيد مرسى، وكأن الرصاص الذى اغتالهما ذهب صداه مع الريح!

ولم يكن أمامى، قبل تصفية حسابى مع الجامعة، إلا أن أكشف ما عند «الأستاذ أمين الخولى» من علم يتحدانى طلاب قسم اللغة العربية أن أستغنى عن كلمة واحدة منه!

وأن أفرغ من هذه الشخصية الأسطورية التى أخذتهم أخذ السحر وتسلطت عليهم بجبروتها الآسر..

وانتظرت موعدى معه لألقاه فى درسه الأول للقرآن بالسنة الثانية، وهاجس خفى يلقى فى يقينى أنه اللقاء الحاسم الذى تتم

به التجربة ويبدأ منه انطلاق خطواتى على معارج الطريق الواصل إلى الحق.

بعد أن تتجاب عن الأفق سحب الوهم وتتكشف الظلال..

* * *

وفى انتظار الموعد المرتقب، عكفت طوال أشهر الصيف على مراجعة ما فى خزانة بيتنا من كتب علوم القرآن والبلاغة استعدادا للقائه، وقد زين لى الغرور أننى باستيعاب تلك الكنوز، أكون ندا لهذا الأستاذ الذى حسبته بهر تلاميذه بما نهل من نبعنا الذى حجبوا عنه!

وكان والدى يرانى مستغرقة فى الدرس، فتتألق أساريره الطيبة بنور الرضى وراحة الطمأنينة، لما يشهد من بوادر انصرافى عن باطل غرور المحدثين، إلى جوهر العلم الحق!

ويدعو الله أن يتم نعمته، وأن يأخذ بيدى هاديا، على الطريق.

وأسمع دعاءه فيرق قلبى له، وأعجب للطف المشيئة الإلهية التى حجبت عن بصيرته الكاشفة الملهمة، تجربة ابتلائى بالجامعة.

وأحس أننى ماكنت قط أقرب إليه ، منى فى هذه الخطوة الفاصلة بين مفترق الطريق، توشك أن تبلغ بى نهاية الشوط وتحسم الأمر كله باللقاء الموعود..

ظلال .. وأضواء

لم يكن فى حسابى قط، أن أجد نفسى بعد عامى الأول فى الجامعة، واقفة فى مفترق من الطرق لا أدرى إلى أين أتجه.

وقد امتلأ الأفق أمامى بخليط من ظلال وأضواء متداخلة، تحير البصر وتحجب الرؤية.

بعد أن ظننت، أن ليس بينى وبين مرحلة الانطلاق، سوى خطوة واحدة ألقى فيها «الأستاذ الخولى» ثم أصفى حسابى مع هذه الجامعة التى انكشفت لى بعد تجربة عام، عن ظل متضخم فى منطقة السراب..

* * *

وكنت أقضى عطلة ذلك الصيف، من عام ١٩٣٦، فى قرية والدى «شبرابخوم» من ريف المنوفية، حيث تعودنا أن ننزح إليها من دمياط كل صيف، فى عطلات المعاهد الدينية.

وقد توجست خيفة، حين عرفت أن القرية تعلم أنى دخلت الجامعة، وتعلم أنى دخلت الجامعة، وتعلم كذلك أننى التى تكتب فى «الأهرام» عن الريف والفلاح، بالتوقيع المستعار: بنت الشاطىء.

سمعت القرية بذلك كله، من اثنين من جيراننا بها: «الأستاذ أحمد الشايب» وكان زميلا لوالدى فى مراحل الدراسة الأولى، وقد تخرج فى مدرسة دار العلوم واشتغل بالتدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية بالأسكندرية، ثم نقل قبيل وصولى إلى الكلية، مدرسا فى قسم اللغة العربية!

الطالب بالسنة الثالثة فى القسم، من أحفاد الشيخ يوسف شلبى الشبرابخومى، عالم الإقليم، ومن أعيان مشايخ الوقت.

ولكن أهل القرية كانوا كراما، فلم يتطوع أحد منهم بالخوض فى سيرتى بمجلس والدى، وكأنما تواصوا فيما بينهم، دون تدبير أو اتفاق، على أن يحمونى من غضب أبى، ويحموه من صدمة مصابه فى ابنته التى وهبها للعلم الدينى وحده، منذ كانت وليدة فى المهد.

وأحسست أن القرية تقف إلى جانبى، تبارك طموحى وتؤيد مسعاى، وتعتز بكل ما أكتب عن مأساة الريف وقضية الفلاح.

وكانت صلتى بجريدة الأهرام قد بدأت فى مستهل الصيف الذى مضى، بمقالى الأول عن فلاحنا المظلوم..

ثم تتابعت مقالاتى عن الريف «الأهرام» على مدى ذلك العام، وفى ظنى أن قومى فى دمياط وشبرابخوم، ليسوا بحيث يربطون بينى وبين ذلك الاسم المستعار الذى تذيل به المقالات!

فلما اكتشفت أن القرية تقف إلى جانبى، بعد أن عرفت سرى، زادنى هذا الموقف ارتباطا بالريف الطيب، وعزلة نفسية عن المدينة وأهلها.

وقيدنى بدين باهظ، أن أتابع السير والجهاد، حتى أكشف عن زيف المدينة وخوائها، وأمزق الأقنعة عن وجهها القبيح وروحها الهامدة وحسها الأصم وضميرها الميت!

مطمئنة إلى أننى محصنة من فتنة المدينة وغوايتها، بمناعة زودتنى بها الأرض الطيبة.

* * *

وكانت تجربتى مع العاصمة، تعطينى هذا الاطمئنان:

لقد جربت معى كل حيلها وأفانينها، فعصيت على غوايتها ولم أشعر فى أى لحظة بأننى أنتمى إليها.

كنت أقيم بها، بحكم عملى فى كلية البنات الأرستقراطية، فى قصرها الفخم، أتناول طعامى فى أطباق الليموج على موائد أنيقة تتلألأ ببريق الكريستوفل والكريستال..

وأحن مع ذلك إلى عيشتنا البسيطة فى بيتنا العتيق على شط النيل بدمياط، ودارنا الريفية المتواضعة فى أعماق المنوفية.

وكان لى بجريدة الأهرام مكتبى الخاص فى غرفة رئيس التحرير، «الأستاذ أنطون الجميل» حيث ملتقى الأقطاب من رجال السياسة وأعلام الفكر والأدب، وأنا غريبة بينهم أعيش بكل خواطرى مع قومى الكادحين فى الحقول والشطوط، وأتسمع على البعد لهاث الظامئين منهم وأنين المرضى والجياع وجؤار الشاكين والمحرومين، وأصغى بكل وجدانى إلى أصداء بعيدة شجية، من أغانى الرعاة والزراع، ومواويل البحارة والصيادين!

وأتنقل بين مدرجات الجامعة الشامخة وأبهائها الرحبة، وحقيبتى ملأى بالكتب العصرية الأنيقة، وأنا مشدودة بروابط نفسية وروحية إلى مقعدى الخشبى فى خلوة والدى بجامع البحر، وإلى مجلسى على حصير بال فى كتاب «سيدنا الشيخ مرسى» بقرية شبرابخوم، وأثمن ما أمتلكه مصحف شريف ولوح من صفيح وقلم من غاب!

كلا...

لم تستطع المدينة أن تغوينى بسحرها الخلاب، وإنما أنا فيها غريبة نازحة، أراها قد أترعت كأسها بما امتصت من عرق الكادحين من قومى، وأتخمت معدتها بما نهشت من ثمار كدهم،

وازدهت متلألئة بما سلبت من نور حياتهم، واغتصبت خيرات أرضهم الطيبة لتتخذ منها زينة ولهوا..

* * *

وتصورت عندئذ أن الطريق أمامى بدأ ينكشف، لأخوض معركتى مع المدينة بعد أن تمادى بها الشر، فأهدرت حرمة الدرجات العلمية التى كانت كل ما بقى لى منها:

ففى ذلك الصيف من عام ١٩٣٦، بدأنا العطلة بعد أن أعلنت الجامعة نتيجة الامتحان، وعلقت كشوفا رسمية بها على لوحات فى مداخل الكليات.

ثم إذا بحزب الوفد الحاكم، يغضب لرسوب كثرة من أنصاره ودعاته، وهم ماشغلوا عن الدرس والتحصيل إلا بالعمل الحزبى المجيد! وإذ رأى الحزب استحالة تزييف النتائج الرسمية بعد إعلانها، عمد إلى البرلمان، وله فيه الأغلبية الغالبة، فاستصدر قانونا «شرعيا» يهبط بالحد الأدنى لنسبة درجات النجاح فى امتحانات الجامعة من ٦٠٪ إلى ٥٠ ٪، على أن يسرى ذلك القانون المحترم بأثر رجعى، على نتائج الامتحانات التى أعلنتها الجامعة رسميا، قبل شهر أو بعض شهر.

وظهرت الصحف، غداة صدور القانون من البرلمان الموقر، وقد امتلأت أعمدتها بحشد كاثر من أسماء الطلاب الذين قضت الجامعة برسوبهم، وقضت الأغلبية البرلمانية المبجلة للحزب

الحاكم، بنقض قرار الجامعة، ونقلتهم بقوة القانون من صف الراسبين إلى صف الناجحين!

ومع خيبة رجائى فى الجامعة، وعزلتى النفسية والفكرية عنها، بعد عامى الأول بها، غضبت لذلك العدوان الصارخ على حرمة الامتحان الجامعى، وأنكرت شرعية الحق الذى اغتصبه البرلمان، فقرر نجاح طلاب حكمت الجامعة برسوبهم.

وفكرت فى أن أنسحب نهائيا من ذاك السباق، بعد أن عبثت الحزبية بقيمه ومقاييسه !

وسيطرت على بالى فكرة الانسحاب، فلم أستطع لمدى أيام ذات عدد، أن أقرأ كلمة واحدة فى كتب التفسير والبلاغة التى كنت عاكفة على مراجعتها واستيعابها، استعدادا للقاء «الأستاذ الخولى» بعد عطلة الصيف.

لكن، كيف أنسحب قبل أن تتم التجربة؟

فى النفس شىء من هذا الانسحاب، ولم ألق هذا الأستاذ لأدرك سر شعورى الواثق بأنى عرفته قبل أن ألقاه..

ولكى أكشف ما لديه من علم، يتحدانى طلاب قسم اللغة العربية أن أستغنى كلمة واحدة منه..

وأجهدتنى الحيرة، فانقطعت عن مجلس أبى فى الأمسيات، حيث كنت أقرأ عليه الكتب الأمهات فى التفسير والحديث.

وانقطعت كذلك عن رحلتى اليومية كل صباح إلى دار «الشيخ دسوقى جوهرى» فى أقصى الطرف الشمالى الغربى للقرية، وقد كنت أسعى إليه لأقرأ عليه أمهات كتب البلاغة.

ثم لم أجد مخرجا من حيرتى، إلا أن أفضى بهمومى إلى الشيخ الجليل، وقد كان لى، رحمه الله، المعلم الصديق والمستشار المؤتمن والراعى الأمين..

وهناك فى حديقة داره الخلوية على حافة الحقول المنبسطة إلى مد البصر، جلست أشكو إليه ما أجد من حيرة وتردد، بين الصدود عن الجامعة والزهد فى درجتها العلمية بعد أن عبثت الحزبية بكل ما بقى لها من حرمة، وبين حرصى على لقاء أستاذ هناك، أعتقد أن تجربتى مع الجامعة لا يحسمها إلا أن ألقاه..

وبدأت أقص على شيخى بعض ما يتناقل الطلاب من حكايات ونوادر، عن علم الأستاذ الخولى وقوة حجته وجبروت عقله وشخصيته، فهز الشيخ الجليل رأسه وهو يقول بصوته الهادىء العميق:

ـ أعرفه يا ابنتى، وإنك لجديرة بالتلمذة عليه!

وقبل أن أهتدى إلى صيغة متواضعة لاتنم عن غرورى، أسأله بها عما عسى أستاذ محدث أن يقدمه لمثلى فى علوم العربية والإسلام، مضى الشيخ الجليل يحدثنى عن أمله الكبير فى أن أشارف الآفاق الرحبة لمنهج الأستاذ الخولى فى تجديد الفكر

الدينى، وتحرير العقل الإسلامى من أغلال الجمود والتقليد التى تخنق حيويته وتعطل انطلاقه مع الزمن!

سألت فى عناد:

ـ كذلك فعل الأئمة من السلف الصالح، وآخرهم الإمام الشيخ محمد عبده، فهل من جديد يضيفه المحدثون؟

وكان جوابه:

ـ أجل يا ابنتى! وكذلك تتابع الأجيال على تلقى الأمانة الصعبة، فيسير كل جيل من حيث انتهى سلفه، دون أن يتجمد الفكر الإسلامى عند الذى وصل إليه جيل مضى!

ثم استطرد يقول متمهلا:

ـ ولكن فيم تعجلك بالحكم؟ هلا انتظرت حتى تلقى الأستاذ الخولى، وسوف يشوقنى أن أسمع حديثك عنه بعد أن تحضرى درسه، فقد كان آخر عهدى به، يوم انتقل من التدريس بمدرسة القضاء الشرعى، إلى المفوضية المصرية فى روما، إماما لها!

وصكت الكلمة مسمعى..

انتقل إلى روما؟

العاصمة الدينية لبلاد الفرنجة، أعداء العرب والإسلام؟

كيف خيل لى الوهم أن هذا الأستاذ ينتمى إلى مثل بيئتى، وبينه وبينها تلك الهوة السحيقة؟

كيف تصورت أنى عرفته قبل أن ألقاه، وإنى لمن قوم يتقربون إلى الله بلعن الفرنجة الذين عاش بينهم وخالطهم؟

وعدت أسأل شيخى فى إنكار:

- ومن روما تزود ببضاعة الفرنجة، ليجدد بها الفكر الإسلامى؟

فتبسم ضاحكا من قولى وأجاب معقبا:

- وإلى بلاد الفرنجة سافر الإمام الشيخ محمد عبده، وفيها عاش. وفى بلاد الفرنجة تعلم ولدى محمود - الدكتور محمود فوزى عميد وزراء الخارجية - وفى روما نفسها، كان يعمل قنصلا للمفوضية المصرية مع الأستاذ الخولى إمامها، بعيدا عن ديار الإسلام!

* * *

وكان رحمه الله يتحدث، وفى صوته المهيب نبرة رثاء لى وإشفاق على، وقد أدرك ببصيرته الذكية ما أعانى من صدمة المباغتة، إذ ينطلق بى حديثه وراء الدائرة المغلقة التى كان يعلم أنى أعيش فيها، وأتصور أن العالم كله ينطوى داخل نطاقها!

وعدت إلى دارنا ساهمة واجمة، ألتمس خلوة بالمكتبة ريثما أجمع شتات نفسىء المبعثرة.

وأمام خزانة كتبنا، جلست أرنو الى الكنز الغالى الذى أوشك أن أراه مستباحا لموازين جديدة محدثة!

وأحاول أن أهرب من حيرتى بالمطالعة فى كتب العلماء الذين ألفت صحبتهم، فيختلط كلامهم فى مسمعى بصوت «الشيخ دسوقى جوهرى» وهو يحدثنى عن حق هذا الجيل فى أن يبدأ من حيث انتهى سلفه، وحق العصر فى أن يضيف جديده إلى تراث العصور الخالية..

ولأول مرة، منذ صحبت أولئك العلماء الأئمة من السلف الصالح، بدأت أتساءل فى أسى: هل يأتى يوم أتخلى فيه عنهم، وقد كانوا منى ملء العقل والروح؟

ولأول مرة كذلك، بدأت أرتاب فيما اطمأننت إليه من أننى على وشك تصفية حسابى مع الجامعة، وأشعر بحاجة الى أن أتمهل طويلا فى اختيار ما أتزود به من بضاعة قومى للجولة المقبلة، خشية أن يكون منها ما لايثبت لنظرة ثاقبة من الأستاذ الخولى!

كمثل إيمانى بأن بلاد الفرنجة رجس ودنس، دون تفكير فى أن إمامنا الشيخ محمد عبده قد عاش فيها وخالط أهلها!

ومثل إيمانى بأن الأوائل لم يدعوا للأواخر شيئا، دون أن أفكر فيما أضافه علماء الإسلام، جيلا بعد جيل، إلى تراث سلف لهم صالح!

وتكاثفت الظلال على الأفق، مختلطة بالأضواء التى سطعت بغتة من حديث معلمى الجليل «الشيخ دسوقى جوهرى» فكشفت

لى عن مناطق مجهولة وراء حدود دنياى المقفلة بحواجز ظننتها آخر حدود العالم!

وتشابهت السبل على، فى هذا المفترق من الطرق، فلم أعد أدرى أى هذه الحواجز يبقى راسخا فى موضعه، وأيها يريد أن ينقض !

فليستجب الله لدعاء أبى..

وليأخذ بيدى على الطريق..

موعدى .. معه!

مع الذكريات أمضى راجعة إلى مستهل العام الجامعى سنة ١٩٣٦.

وقد روعت القرية وعدت إلى العاصمة، وملء نفسى شعور واثق بأنى أدنو من منطقة الضوء التى تنجاب فيها عن أفقى ظلال القلق والحيرة، وتتضح معالم الطريق..

ومن عجب أننى ما كدت أصل إلى العاصمة، حتى زايلنى ماكنت أشعر به من تهيب للجولة القادمة، أثرا لما سمعته من أستاذى «الشيخ دسوقى جوهرى» عن آفاق جديدة رحبة وراء جدودى دنياى المغلقة!

واستعدت كل زهو طموحى وعناد كبريائى، تحت ضغط إحساس غريزى بحاجتى إليهما دفاعا عن وجودى فى ذلك الخضم الصاخب، حيث لا مجال لمثلى فى اقتحامه، بغير الذخيرة التى أمدتنى على طول الطريق بطاقة الكفاح وعدة النجاح.

ورحت أستجمع قواى للجولة التى توقعت أنها الحاسمة، فازدهانى الغرور إذ أبدأ عامى الثانى فى الجامعة، ومكتبات العاصمة تعرض كتابى الأول عن «الريف المصرى»، والمجتمع الأدبى يتحدث عن فوزى بالجائزة الأولى للمباراة الرسمية لوزارة «على ماهر» فى موضوع «إصلاح الريف والنهوض بالفلاح». ومجتمع القرية يتابع أنباء اختيارى عضوا فى «المؤتمر الزراعى الأول» الذى انعقد بالقاهرة عام ١٩٣٦، وكان زملائى فيه أقطاب الزراعيين: فؤاد أباظة مدير الجمعية الزراعية الملكية، ومحمد ذو الفقار مدير المتحف الزراعى، وعثمان أباظة مدير مصلحة الأملاك الأميرية، وحسين فريد وكيل الجمعية الزراعية، وإبراهيم رشاد عميد التعاون...

وازددت تشبثا ببضاعتى التى تزودت بها من مدرستى الأولى، لعلمى أنها وحدها التى فرضت وجودى على مجتمع العاصمة، وحققت لى ما لا تتطاول إليه أحلام زملاء لى من طلاب الجامعة، فيهم من ينطق العربية بلكنة أعجمية، وفيهم من يقع فى حيص بيص، إذا ما سئل أن يكتب بضعة أسطر باللغة الفصحى!

وحاولت ألا أشغل نفسى بالذى سمعته من اتصال «الأستاذ الخولى» بالثقافة الحديثة، فى رحلته الطويلة الى بلاد الفرنجة، وأنى لأعلم أنى ظهرت فى ميدان الصحافة والتأليف والمسابقة

الرسمية والمؤتمر الكبير وحاضرت على منابر الجامعة وقاعة ايوارت التذكارية، ودار الاتحاد النسائى، دون أن أحتاج إلى كلمة واحدة مما حصلته من علم محدث لم يلبث أن غاب فى منطقة معطلة من ذهنى، بعد أن أديت امتحان الشهادة الثانوية، ثم امتحان النقل من السنة الأولى بالجامعة.

وهل كنت أعتمد فيما حاضرت وكتبت، على ما حفظت من كتب الطبيعة والكيمياء والجبر والهندسة، أو ماقرأت فى الإنجليزية من آثار تشارلس ديكنز وشكسبير وشارلوت برونتى، وفى الفرنسية من أعمال شاتريريان وموليير وفيكتور هيجو وجورج صاند، وفى اللاتينية من حروب يوليوس قيصر فى بلاد الغال؟

وإنما كنت أحاضر وأخطب بلسان صقله تجويد القرآن الكريم، وأكتب وأؤلف، معتمدة إلى أقصى المدى، على اتصالى بالبيان العربى فى ذروة نقائه وعز أصالته، وفقهى لأسرار من النحو واللغة تجعل القلم طوع يدى..

وتوجهت إلى الجامعة مشحونة بالكبرياء والتحدى والعناد، وقد آليت على نفسى ألا أدع هذه الجامعة تستدرجنى لتسلبنى كنزى القديم فى غفلة منى!

وشط بى الوهم وجمح، فخلت أن الجامعة تضيق بمثلى فلن تهدأ حتى تطوينى فى ظلها، وتحاول بكل ما وسعها من جهد

وحيلة، أن تذيبنى فى بوتقتها لكى أنسلخ من قديمى الأصيل، وأعتز بانتمائى إليها!!

ولست أدرى لماذا تذكرت فى موقفى ذاك من الجامعة، تجربتى الأولى فى العاصمة مع السيدة «الحاجة لبيبة أحمد صاحبة مجلة النهضة النسائية»؟

ربما جاء الاختلاط، من حيث أسرتنى السيدة الوقور بلطفها وتشجيعها، وبما ائتمنتنى على اسمها ومجلتها ودارها، فلم أستطع الفكاك من الأسر إلا بمشقة بالغة، بعد أن أجهدتنى معاناة التقمص لشخصية السيدة الحاجة، والتفكير بعقليتها، والتعبير عن وجدانها، وبينى وبينها من فروق السن والتجربة والطبقة والبيئة، ما جعل هذه المعاناة نوعا من العذاب.

لقد طوتنى فى ظلها وهى تبارك مواهبى، فشاخ قلمى الغض واكتهلت عقليتى الصبية، لطول ماتقمصت فكريا شخصية سيدة فى سن جدتى..

ولولا أن تداركتنى رحمة من ربى، لما استطعت التخلص من أغلال الأسر بمجرد أن وضعت إحدى قدمى فى الجامعة، والأخرى فى دار الأهرام..

واستطعت بمشقة بالغة أن أسترد ذاتى، بعد أن وعيت الدرس الأول الذى تعلمته فى المدينة..

ومحال أن أسمح لبيئة ما فى العاصمة، ولو كانت الجامعة، أن تطوينى فى ظلها وتذيب عقليتى فى بوتقتها، لتسلبنى ذاتى مرة أخرى..

* * *

وتعجلت الجولة الباقية لى فى الجامعة، لكن العام الدراسى بدأ فى جو عاصف بالتوتر والقلق، ودوامة الأحداث العامة قد شدت الجامعة إلى صميم المعترك السياسى، وكنت أقف بمعزل عنه، بعد أن عبثت الحزبية بقضية الوطن، فصارت بها إلى صراع محموم على كراسى الحكم المتحركة بخيوط من قصر الدوبارة.

حتى لفتتنا الدوامة الصاخبة، بعد أن سقط شهيدان من زملائنا الطلاب على مرأى منا ومسمع، فاستقبلنا العام الجامعى وما نستقر على حال من الغضب والسخط، وأعين السلطة مسلطة علينا تخشى تجمعنا بعد عطلة الصيف، فى تلك الساحة التى اندلعت منها فى الخريف الماضى شرارة ثورية حاولت السلطة إطفاءها بمياه النيل تحت كوبرى عباس المشئوم، فزادها الماء المبارك توهجا وضراما.

ومضت أيام وأسابيع، ونحن نذهب إلى كلية الآداب فلا نكاد نأخذ مقاعدنا فى قاعة الدرس، حتى يستفزنا طيف شهيدنا الزميل «عبد الحكم الجراحى» فننتفض فى أسى وحيرة، وحتى

يأخذنا الضجيج المثار عما رزئت به الأمة من معاهدة صداقة وسلام مع الإنجليز، فيتفرق جمعنا فى مجموعات مبعثرة لا تجد سبيلا إلى طمأنينة واستقرار..

فى إحدى هذه المجموعات، لمحت الأستاذ الخولى يتحدث إلى عدد من تلاميذه تحلقوا حوله يصغون فى انفعال ظاهر. فدنوت منه لأسمع مايقول، وكانت دهشتى بالغة حين ميزت فى صوته العميق نبرة مألوفة، جعلتنى أفكر متسائلة:

- أين ومتى يا ترى سمعت هذا الصوت؟

نفس السؤال الذى طالما رددته فى خاطرى كلما لمحت هذا الأستاذ من بعد فلم أشعر قط أنه غريب عنى، وانثنيت أفكر:

- أين ومتى يا ترى لقيته من قبل؟

وشدتنى كلماته النافذة المنطلقة، قريبا من منطقة الضوء، وقد خيل الى أنه يعنينى بكل كلمة منها، عن شواغل تافهة تستهلك طاقة شباب الأمة وتلهيهم عن محنتها، وعن آمال لهم هزيلة تخدر ضمائرهم وتحصرهم فى نطاق فرديتهم، وعن أوهام ساذجة حمقاء تنسج لهم أمجادا كبيت العنكبوت، وعن أضواء براقة خادعة تغشى أبصارهم وبصائرهم، فيتهافتون عليها تهافت الفراش، اقتناصا لفرصة عاجلة أو شهرة خاطفة! وكان الطلاب الذين تحلقوا حوله، يحاورونه فيما يقول، لكنى لا أذكر أنى وعيت كلمة مما قالوا، بل كان همى كله أن أصغى إلى صوته القوى

المسيطر، وهو ينفذ الى أعماق وجدانى وضميرى فيكشف عن بصيرتى غطاء الغفلة والوهم والغرور..

وحين هَمَّ الأستاذ بالانصراف، سأله سائل من طلاب فرقتى عن موعد درسه الأول لنا، فكان جوابه:

- ليكن الموعد فى مثل يومنا هذا من الأسبوع المقبل

ثم استطرد موضحا:

- أحسبه السادس من نوفمبر!

وأذهلتنى المفاجأة، فما تمالكت أن رددت بصوت خلته مسموعا:

- السادس من نوفمبر؟ واعجبا! إنه يوم مولدى..

لكن الجمع كان قد انفض، فانصرفت لحالى وأنا لا أكف عن التفكير فى ذلك الموعد العجيب الذى اختاره القدر للقائنا، دون بقية أيام السنة وعددها ثلاثمائة وستة وستون يوما!

وأعيانى أن أريح نفسى بافتراض أن الأمر لايعدو أن يكون محض مصادفة، فما كان منطق بيئتى المتصوفة ليسمح لى بهذا الافتراض، وهو منطق يرفض القول بالمصادفة رفضا حاسما، ويرد الأمر فيها إلى مشيئة عليا تحكم مايبدو للخلق، من قبيل المصادفات العشواء!

وعلى مشارف منطقة الضوء، تمهلت أحدق فى آثار خطاى

على الدرب الطويل الوعر، فكأنى تبينت إذ ذاك سر إصرارى على لقاء الأستاذ الخولى قبل أن أصفى حسابى مع الجامعة..

بل كأنى أدركت كذلك، أننى ماقطعت ذلك الشوط الطويل على دربى، إلا لكى ألقاه فى يوم مولدى..

اللقــاء ...

كلما اقتربت، فيما أسترجع من آثار خطاى على الطريق إليه، من ذكرى لقائنا الأول، تمهلت أجتر الذكرى، لعلى أعود بها من حيث بدأت فأعيش حياتى معه مرة أخرى، بعد أن طواها الردى..

ومن بعيد،

تلوح لى الرؤيا الباهرة التى تجلت لى عندما لقيته، فأتشبث بها فى محاولة يائسة للإفلات من هول اليقظة والهروب من عالمى المنهار..

من بعيد،

أرنو إلى مشارف الأفق المسحور الذى لاح لى بعد أن عبرت منطقة الضباب، فأجاهد لأطوى فى رحابه النيرة حاضرى البائس وواقعى الفاجع، وألم شتات ذاتى المبعثرة وأشلاءها الممزقة، عساى أن أنجو بها من لوثة الأسى ومتاهة الضياع، لتمضى عبر السنين الخوالى إلى حيث تراءى لها ذلك الأفق

عبقرى السنا والجلال، فتسامت نحوه لا تحيد عنه، فكلما عرجت إليه خطوة امتد أمامها رحب المدى عالى الذرى، وهى تزداد على مشاق العروج وتكاليف المجاهدة، جلاء بصيرة ونفاذ رؤية، وتتزود فى كل خطوة بمدد متجدد من فيض اليقين ونور الإيمان..

من بعيد،

أقف عند نهاية المطاف أستجدى الزمن رجعة إلى الأمس السعيد الذى ولى وراح،

وأتسول غفوة حالمة تحلمنى إلى حيث أفضى بى المسعى إلى دربه، فى يوم ميلاد لى جديد!

هناك..

حيث أخذت مكانى فى قاعة الدرس بالجامعة، متحفزة للجولة الباقية لى على الطريق، ومستجمعة كل رصيدى المتضخم من زهو الطموح وإرادة التفوق، ومتأهبة لعرض بضاعتى التى تزودت بها من مدرستى الأولى، فى تحد واثق من النصر..

ودخل «الأستاذ الخولى» بسمته المهيب المتفرد، فألقى علينا التحية واقترح، لكى نتعارف، وأن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن، ولكل طالب أن يختار مبحثا منها، يعده ويعرضه للمناقشة فى الوقت الذى يحدده.

وبادرت فأعلنت اختيارى للمبحث الأول، فى «نزول القرآن».

وعندئذ سرت فى القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته، لكنه لم يلق إليها بالا، واستطرد يعرض بقية المباحث، وأنا أتشاغل عن غيظى المكظوم، بالتفرج على عدد من الزملاء، فى صراعهم المكشوف على المباحث الأخيرة، إرجاء للموقف الصعب.

وعاد الأستاذ يسأل كل طالب منا، عن الوقت الذى يحتاج إليه فى إعداد بحثه، فأجبت فى عناد وشموخ:

- يكفينى يوم أو بعض يوم !

قال فى نبرة إشفاق وتحذير :

- كذا!؟ فكرى مليا، فربما بدا لك أنك فى حاجة إلى مزيد من الوقت.

وأبيت أن أتراجع!

ولماذا أتراجع، ومبلغ علمى أن المادة مبذولة جاهزة، ومصادرها الأصيلة فى متناول يدى، فلن يحتاج الأمر معى إلى أكثر من بضع ساعات للمراجعة، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة!

ولم يفتنى أن الأستاذ يرانى تورطت فى هذا التعجل، فكأنى خشيت أن يأخذ عنى فكرة خاطئة، فقلت أسأله، مدلة بما أملك من ذخائر علمه:

ـ هل يكفى أن أراجع فى موضوعى، بكتاب «البرهان» للبدر الزركشى، وكتابى «الإتقان، واللباب» للجلال السيوطى، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية، وطبقات ابن سعد، وتفسير ابن جرير الطبرى؟

أجاب:

ـ كتاب واحد يكفى الآن، لو أنك عرفت حقا كيف تقرئين!

وكان هذا، آخر ماتوقعت أن أسمع !

ألمثلى يقال ذلك؟ وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعيينى أن أقرأه؟

وكبحت غضبى وأنا ألتمس للأستاذ العذر، فلعله يتصور أننى كغيرى من الطلاب، وفيهم حقا من لايعرف كيف يقرأ!

ـ ماذكرت هذه الكتب إلا لأنى قرأتها واستوعبت ما فيها، وإنما كان سؤالى عن مصادر أجنبية، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها إلى مراجعى !

فما زاد على أن قال:

ـ لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع، لما تورطت فى مثل هذا السؤال المنكر!

وتحيرت لا أملك سؤالا ولا ردا، فما كنت حتى تلك اللحظة، قد فكرت فى التمييز بين المصدر والمرجع..

وتابعت الإصغاء إلى الأستاذ، وهو يلقى علينا مبادىء منهجه، حريصة على ألا تفوتنى كلمة واحدة مما يقول!

وبجهد مرهق، تشاغلت عن عالمى النفسى المائج بشتى الخواطر، لأعى ماأسمع، ولاشىء يزعجنى غير دقات ساعة الجامعة، معلنةعن سير الزمن..

وكنت أتمنى لو توقف الزمن، ليظل الأستاذ يتكلم، وأنا أصغى وأتعلم!

من ذلك اللقاء الأول، ارتبطت به نفسيا وعقليا، وكأنى قطعت العمر كله أبحث عنه فى متاهة الدنيا وخضم المجهول.. ثم بمجرد أن لقيته لم أشغل بالى بظروف وعوائق، قد تحول دون قربى منه، فما كان يعنينى قط، سوى أنى لقيته، وما عدا ذلك، ليس بذى بال !

وقد انصرفت من درسه الأول، فى اليوم السادس من نوفمبر عام ١٩٣٦، وأنا أحس أنى ولدت من جديد.

* * *

وحين وقفت بعد أسبوع أؤدى أمامه امتحانى الأول، لم أصمد سوى دقائق معدودات، أقررت بعدها أن حصيلتى من كنز الثقافة الإسلامية، الذى حسبت أنى ملكته، لا تعدو القشور والأصداف! وأن بينى وبين ذخائره المكنونة حجبا وأرصادا تحول دون النفاذ إلى الجوهر واللباب.

وفهمت لماذا ارتاب الأستاذ فى معرفتى للقراءة، فما كانت قراءتى لذخائر مكتبتنا، سوى مطالعة سريعة مرتجلة، تلتقط الدلالة العابرة والملحظ القريب المبذول، ويعوزها ضبط المنهج وأناة التمثل، فيخطئها لمح سر الكلمة وروح النص، ويفوتها الإصغاء إلى إيحاء النبرة ونبض الحرف!

وكان على، أن أعود فأبدأ القراءة فى كتب قومى، من حيث ظننت أنى بلغت منها أقصى ماتعطى.

وربما انقضت أيام وليال، وأنا عاكفة على قراءة فقراءة فقرة من كتاب، كنت بحيث أتم قراءته كاملا فى أمسية واحدة!

بل ربما انقضت شهور وأنا مستغرقة فى التماس سر كلمة من القرآن الكريم، وكنت أتلو السور الطوال عن ظهر قلب، لا أتوقف ولا أتعثر!

والمعارف المحدثة التى انزوت فى منطقة معطلة من ذهنى بمجرد أن أديت الامتحان فيها، مالبثت أن انتقلت إلى مجال الوعى والإدراك، بتأثير شعورى بالحاجة إلى روافد منها تخصب وجودى الفكرى، والى منافذ مفتوحة تنطلق منها عقليتى إلى ما وراء الجدران العازلة الصماء التى حسبتها نهاية الحدود لعالم المعرفة.

وانجلى ماحسبته سرابا، فإذا الجامعة تعطينى من جديدها ما لم يخطر لى قط على بال..

وإذا القديم الذى جئتها به، يجلوه منهج الأستاذ الخولى فيمنحه روح الحياة ونبض العصر!

ومضى وقت طويل، قبل أن أجرؤ على الوقوف مرة ثانية، لأقرأ على الأستاذ الخولى فى قاعة الدرس، بتهيب وخشوع، فصلا من «مقدمة ابن الصلاح» فى علوم الحديث، عن ضوابط المنهج النقلى للرواية.

بعد أن حشدت له كل طاقتى من تمثل منهج الأستاذ، وكل رصيدى من تراث السلف، وقطعت إليه رحلة ذهنية طويلة شاقة، مع مسار الإنسانية فى طريق المعرفة، من تصورات العقلية الأسطورية فى مدرسة السحر، إلى حكمة الفلاسفة الأقدمين، ومن جدل السوفسطائية ومنطق أرسطو ومقال ديكارت والمنهج التجريبى الاستقرائى، إلى مباحث الأصوليين والكلاميين، وضوابط علماء الحديث واللغة، ومناهج الفلاسفة المسلمين!

وانتهت المرحلة الجامعية الأولى، ولم يبق لى من زهو الطموح إلا إدراكى لحاجتى إلى أن أتعلم، وتطلعى إلى أن أظل ما عشت تلميذة لهذا الأستاذ الذى علمنى كيف أقرأ!

ولم يبق لى ما أعتد به فى مجال التنافس العلمى مع زملائى الطلاب، إلا أن أباهى بما أعلم من قصورى عن بلوغ مدى الأستاذ الخولى، حين ظن ظانون منهم أن التلمذة عليه بضع سنوات، قد تعطيهم مفاتيح علمه وتبيح لهم أسرار درايته..

وما كان أشق الطريق بعد ذلك!

لقد ظننت حينا أننى ما أكاد أصل إلى مرحلة الدراسة العليا حتى يهون الأمر على، إذ يصير لى حق اختيار المجال الذى أتخصص فيه وأفرغ له.

غير أنى ما لبثت أن أدركت أن تلمذتى للأستاذ الخولى، جعلت مسافات من مصاعب الطريق، أهون من أن تقاس بما أستقبله منها.

كنت أشعر بالأستاذ الخولى معى، فى كل ماأقرأ وما أكتب، فأخضع بهذا الشعور لرقابة عسيرة من صرامة منهجه وجبروت منطقه، فأطيل الوقوف عند كل كلمة، حتى ألمح سرها.

ولم يعد يعنينى أن أتعجل إتمام بحوثى للدرجات الجامعية العالية، بل الذى كان كثيرا ما يحدث، أن أقطع فيها مرحلة أحسبها خطوة فى الطريق، ثم أعرضها على منهج أستاذى فأتخلى عنها بعد الذى أنفقته فيها من جهد، وأعود فأبدأ من جديد وكأن ليس للزمن والجهد أى حساب فى سبيل ضبط التفكير، أو الكشف عن كلمة واحدة فحسب، غاب عنى سرها.

وكدت، لكثرة ماتعثرت، أن أيأس من طاقتى على الوصول بالبحث إلى مستواه المرضى، لولا أن أنكر أستاذى على، أن يفوتنى وعى المغزى الحقيقى لهذا الشعور بالقصور والتعثر. وعجبت حين سمعته يؤكد لى، أننى سأظل مرجوة طالما بقى لى شعورى بالقصور وإدراكى لمشاق الطريق! وأحسبه ذكر لى فى تلك المناسبة، ما وعى «الإمام مالك بن أنس» **من وصية شيخه هرمز:**

«ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول: لا أدرى، فان العالم اذا أخطأ لا أدرى، أصيبت مقاتله!»

وحين أفضيت إليه بأننى فى ريب من إمكان الوصول ببحثى إلى غايته، كان جوابه الذى ظل ملء مسمعى على طول المدى:

ـ ومن قال إن الطالب يستطيع أن يصل بالبحث الى غايته؟ نحن نعيش العمر كله طلاب علم، كادحين الى ما نستشرف له فى كل خطوة من جديد الآفاق والغايات. وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة فى موضوعه، وجهد طالب العلم لايقاس بمدى ماقطع من أشواط، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الطويل الممتد إلى غير نهاية ولا مدى..

وهكذا كنت أجد لديه لكل معضلة حلا ولكل سؤال جوابا، فأشعر بالرضا عن نفسى إذ لم يخنها صدق الإلهام وسلامة الفطرة، فاتجهت بى إلى من أحس كلما لقيته أننى أولد من جديد، وأحس كلما جلست إليه وحضرت درسه، أن عالمى يرحب حتى لتضيق الدنيا عن أن تتسع له!

* * *

وكان من الغريب حقا، أننى حين فتحت قلبى وعقلى للجامعة، عن يقين واثق بأن لديها ما تقدمه إلى من جوهر العلم ومنهج المعرفة، واجهتنى أزمة من عجز البيئة الجامعية عن فهم معنى التلميذة العلمية، بحيث اضطرتنى إلى أن أخوض معها معركة عنيفة، لكى أفرض عليها تلمذتى للأستاذ الخولى، دون أن تكون مستعدة لقبولها.

كانت البيئة الجامعية تنظر إلى هذه القضية، من حيث هى علاقة شخصية أو ظاهرة عارضة مألوفة، على حين كنت أنظر

إليها من حيث هى قضية مبادىء خلقية وقيم علمية، وكرامة عقلية، فكان صراعا طويلا مجهدا، احتسبت كل أذى فيه امتحانا لأهليتى لما تعلقت به وطمحت إليه، وجهادا فى سبيل ما آمنت أنه حق وواجب..

ولست الآن بحيث أقص حديث هذه المعركة، وإنى لأدرى أن عددا من زملائى خاضوها كذلك بصورة أو بأخرى، نضالا عن تلمذتهم للأستاذ الخولى، فلم تعد القضية خاصة بى، فيما أروى من ذكريات حياتى، وإنما هى جزء من تاريخ جامعتنا، يستكمله الزمن فى غد قريب أو بعيد، دون أن يفلت منه شيئا ذا بال..

معـا..
علـى درينـا الواحـد

وآن لى بعد كل تلك الرحلة الشاقة، أن أعرف جواب ما طالما سألت عنه:

أين ومتى يا ترى لقيته، وسمعت صوته من قبل؟

فمنذ قابلته، تجلى لى السر المحجب الذى حيرنى أمدا طويلا، وكانت مجاهدتى الصعبة سعيا دائبا لكى أصل إلى مرتبة الكشف التى يفنى «أهل الحقيقة» أعمارهم فى سبيل الوصول إليها..

فلقد آمنت من اللحظة الأولى للقائنا، أنه اللقاء الذى تقرر فى ضمير الغيب منذ خلقنا الله من نفس واحدة، وخلق منها زوجها.

وإن عدتنا الدنيا اثنين فى الحساب الرقمى والواقع العددى..

اثنين، لكل منهما اسمه ونسبه ولقبه وصفته وصورته، وعمله وشخصيته..

وبهذه الثنائية العددية يتعاملان مع الدنيا والناس.

ولكنهما فى جوهر حقيقتهما واحد لا يتعدد..

لا كما تخيلت الأساطير عن النفس والقرينة.

ولا كما تغنى الشعراء بالروح الواحدة فى جسدين..

ولا كما تمثل الصوفية رؤيا الفنان فى ذات الحبيب.

ولا كما تأمل الفلاسفة فى وحدة الوجود.

ولا كما تحدث العلماء عن الخلية الواحدة قبل أن تنقسم..

وإنما هو سر وراء ذلك كله..

تجلت فيه آية الله الذى خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها!

* * *

وكنا أحيانا نفترق

يذهب كل منا إلى عمله، أو يسافر فى بعض شانه

وقد يمضى أحدنا إلى أقصى المشرق، والآخر إلى أقصى المغرب.

لأن الدنيا لا تعرف إلا أننا اثنان!

والحياة تفرض علينا أن نعانيها بهذه الثنائية العددية

ورغم هذا، كنا النفس الواحدة..

وذلك ما أعيا الدنيا ويعييها أن تفهمه أو تتصوره وتتمثله

إلا أن تحسبه من رؤى الشعراء الحالمين أو مواجد الصوفية العاشقين

ويعيى منطقها أن يفسره

إلا أن يقول أنه من تآلف القلوب واندماج النفوس وتعانق الأرواح وراء عالم الواقع ومقاييس المادة، ومنطق الحس وأبعاد المنظور

وكنا أحيانا نتخاصم!

وربما مرت علينا فترات مغاضبة يحسبها أهلونا وأصدقاؤنا من لهفة الحب ودلال العاشقين

ويلمح فيها أرهفهم حسا، وهج الضرام المتوهج فى أعماقنا يتلمس متنفسا!

دون أن يتصور أحدهم، أن المخاصمة أو المغاضبة، ليست إلا صراعا حتميا بين جوهرنا الواحد، وبين الثنائية المزدوجة التى يفرضها علينا واقع الحياة وقانون المادة وأوضاع الدنيا!

ومضى العمر كله وماكففت عن التساؤل:

ـ أكان يمكن أن أضل طريقى إليه، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟

وحتى آخر العمر، لم يتخل عنى إيمانى بأنى ما سرت على دربى خطوة ألا لكى ألقاه.. وما كان يمكن أن أحيد عن الطريق إليه، وقد عرفته فى عالم المثل ومجالى الرؤى وفلك الأرواح

من قبل أن أبدأ رحلة الحياة..

ثم مضى..

وبقيت!

هل من سبيل إلى أن أستبقى تلك الرؤيا الباهرة لمسعاى إليه ولقائى به، لتؤنس وحشة الفراق إلى أن يحين الأجل فألحق به ويلتئم الشمل مرة أخرى فى عالم الروح..

أسفا !

كل ما مضى انتقل إلى منطقة الأحلام، فلا سبيل إلى استرجاعه إلا فى غفوة مختلسة لا تلبث أن تبدد بيقظة مروعة، تسلمنى إلى قبضة الواقع، حيث المشهد الفاجع من قصتنا التى كانت أسطورة الزمان..

لقد مضى.. وبقيت.

ورأيته بكل جلاله وشموخه وكبريائه وفتوته، يرحل عن الدنيا حين لم يعد له فيها على أرضنا مكان..

وشهدته بعينى مسجى على فراشه، ليس بين حياته الدافئة الخصبة الفتية السخية، وبين هذا الموت الهامد، إلا نبضة من

قلبه الكبير لم تستغرق جزءا من ثانية وخفقة من نفس واحد، لا يكفى لإطفاء عود ثقاب..

وعلى عينى، اقتحم ناس غرباء مخدعه ليجهزوا جسده للرحلة الأخيرة.

وعلى عينى، حملوه من دارنا إلى غير عودة، ومضوا به إلى قريته «شوشاى» فى ريف المنوفية.

دفنوه فى ترابها الذى جاء منه، واليه كان المآب..

* * *

وبدت الحياة لتلاميذه أقل جمالا ونضرة من بعده، وأندر شجاعة وحكمة.

فكيف عساها تبدو لى

وقد كان هو نبضها الحى وسرها الأكبر

وكان هو الذى يعطيها قيمة ومعنى

وعلى درب وجودنا الواحد وحياتنا المشتركة

سارت خطاه تشع الدفء والنور، وتفجر ينابيع الحب والخير والجمال..

وما تصورت قط أنى أعيش بعده..

بل كان اليقين أن نتابع رحلتنا معا إلى الدار الآخرة.

وأن ليس على الله بمستبعد، ونحن من عباده الذين إذا أرادوا أراد..

أن تتجلى فينا وبنا آيته الكبرى، فنمضى معا

كما تجلت فينا ولنا فى حياتنا الأولى

فكنا الواحد الذى لا يتعدد، والفرد الذى لا يتجزأ..

* * *

كيف مضى وبقيت؟

أهو ابتلاء لايعانى ببشرية الإنسان، إذ أشهد الموت يغتال من كان يعطى الحياة، ويفيض عليها جمالا من شجاعته وحكمته، وذكائه وفروسيته؟

اللهم إنى ما جحدت قط بشريته، وكل بشر يموت، لكنى ما توقعت أن أعيش بعده.

فهل هو الموت، لا يرى فينا إلا اثنين، لكل منهما أجله المقدر بالثوانى، وعمره المحسوب بالأنفاس؟

تلك إذن تجربة أخرى تكابدها، فيكون منا الحى الميت والميت الحى، الى أن ألحق به فيلتئم كياننا طيفا واحدا فى عالم الأرواح.

أو لعلها الحياة أمهلتنى ريثما أروى قصتنا على مسمع الزمان، تفسيرا لأية الله العظمى فينا، خلقنا «من نفس واحدة، وخلق منها زوجها»؟

أم لعله القدر أراد لى أن تكتمل معاناتى لتجربة الحياة، فأبلو حزنها الأكبر كما بلوت نعمتها العظمى وفرحتها الكبرى؟

مازلت حائرة لا أدرى..

وعلى الجسر، ما بين الحياة والموت

فى متاهة الحيرة والضياع

لا أكف عن رصد حركاتى وإحصاء أنفاسى، مستغرقة فى تأمل هذا المشهد الغريب من قصتنا !

مرددة مع كل نفس:

كيف مضى... وبقيت !

أسفا !!

كل الذى كان من حياتنا معا، انتقل إلى منطقة الأحلام والذكريات

والذى بقى، فى نطاق الواقع، هو هذا المشهد الفاجع، بكل عمقه الغائر وأبعاده المترامية!

دنيـانا بعـده ..

رؤيا ..

طيف من أحببته طاف بنا

فتنبهنا على وقع خطاه

خلته قد آب من رحلته

مرهف الشوق وقد طال سراه

بعد يأس من رجاء الملتقى

بلغ البين بنا أقسى مداه

فطوانا الليل فى كهف الأسى

نحتسى الوحشة من كأس دجاه

شدونا نوح غراب ناعق

والندامى البوم من قاع فلاه

جثمت فى الكهف لا تبرحه

واطمأنت بعد أن سدت كواه

وانكفأنا فى غيابات الدجى

تغزل الظلمة خيطا لا نراه

ونسجنا منه أكفانا لنا

حين لم يبق لنا خيط سواه

وانزوينا فى مهاوى كهفنا

عافنا الموت، وعافتنا الحياه

* * *

لم نكن نمنا، ولكن غفوة

من كلال نال منا منتهاه

هجع السمار فيها برهة

وغفا الناعق يجتر صداه

* * *

فجأة نبهنا من غفونا

رجع إيقاع أليف من خطاه

وتهادت نحونا أنفاسه

تحمل البشرى لنا، عطر شذاه

ردت الروح إلى أشلائنا

وسرت فى قلبنا نبض حياه

فاستقبلنا الباب لاستقباله

وعلى الأفق شعاع من سناه

لمحة من ناظريه بدلت

ما كسانا الليل من ثوب عماه

لمسة ساحرة من كفه

عاد منها الكهف محراب صلاة

* * *

قلت: أشكو من تباريح النوى؟

قال: لا، ليس ذا وقت الشكاة

حسبنا أنا التقينا فاغفرى

لزمان البين ما اغتالت يداه

قلت: أخشى ما طوى من غدره

ليت ما ذقناه منه قد كفاه

قال: خلى هم أمس وغد

أمس قد ولى ولم تأت الغداه

قلت: ما أدرى، أحلم ما أرى

أم بعثنا ...

وانــتــهى الـصــوت وتــاه

وصــحــونــا، فــإذا تــلك رؤى

بـعـثـرهـا الـريح فى تـيه الـفلاه

وإذا نــحن كــمــا كــنــا هــنــا

فى قــرار الـكـهف لم تـفـتح كـواه

نـلـعق المــر ونـقـتـات الجـوى

عـافـنـا المـوت وعـافـتـنـا الحـيـاه

شوشاى

١٩٦٦/٩/٩

بعد عام

ومــضى عــام ومــا زلت هــنــا

أنقل الخطو،

عــلـى الجــســر إلــيك ...

مــرت الأيــام تــغــذونى الجـوى

كــيــف لم أهــلــك أسـى

حزنا عليك؟

كـلـمـا قـلـت دنـا مـيـعـادنـا

خــانــنــى الــظـن..

ولــم أرحــل إلــيـك

مـزقت أيـدى المـنـايـا شـمـلـنـا

وأراد دائما ..

أما كنت هنا

* * *

هل مضى عام؟

أما كنت هنا

منذ يوم فات كالدهر الطويل؟

لم أنزل فى حيرة من أمرنا

هل مضى عام على يوم الرحيل؟

وصدى نعيك فى أسماعنا

لم يزل يدوى، فيغشانا الذهول

عامنا،

قد كان دهرا من عذاب

ولئن خلناه كالحلم الرهيب

دربنا،

قد صار كالقفر اليباب

غير طيف منك، عنه لا يغيب

دارنا،

لم يبق فيها من ثقاب

غير رؤيا لمحة، فيها تثوب!

* * *

طيفك الماثل يحدو خطوتى

نحو مثوى لك،

دان، وبعيد ...

هاتفا أن أحتمى فى وحشى

بيقين الملتقى،

خلف السدود

لحظة تأتى فتنهى محنتى

بالتئام الشمل،

فى دار الخلود..

لحظة تنسخ ماكابدته

من عذاب البين،

من رفض الحياه

من وجود عافنى أو عفته

عاث فيه اليأس

واغتال مناه !

* * *

لم تغب رؤياك عنى فى الدجى

وحديثى كله،

عنك.. ولك !

وأناجيك فيرتد الصدى

من بعيد،

سائلا عنى وعنك:

كيف أبقى بعد إيغال النوى

وحياتى سرها،

فيك... وبك؟

* * *

هل مضى العام وما زلت هنا

أنقل الخطو،

على الجسر إليك؟

أبأنفاسك أحيا أم ترى

مات بعضى،

وبكى بعضى عليك؟

مصر الجديدة

١٩٦٧/٣/٩

لا تَخَلْ أنَّا على بعد المزارْ

قد سلونا أو نسينا عهدنا

أو غفونا بين ليل ونهارْ

ننشد الصبر وناسو جرحنا

أو تعبنا من سهاد وعذاب

فالتمسنا مهرنا من بؤسنا

أو مللنا من ضياع وسراب

فابتغينا راحة فى يأسنا

* * *

لا تخلْ أنا على مر الزمَنْ

قد عرانا الضيق من أطلالنا

أو عيينا ببقايا من دمنْ

لا تنى تبكى على ماض لنا

سائلات فى وجوم وشجنْ،

أين مغنانا الذى كان هنا؟

* * *

ما درتْ تلك البقايا أنها

رجَّعت فينا صدى أشجاننا

ها درتْ أنا حطامٌ بينها

لا ترى فيه سوى أشلائنا

* * *

قد يرانا يومنا كالناس انمشى

ما علينا من خُطانا؛

أو يرانا ليلنا كالناس نأوى

وأسانا قد طوانا

ربما نلعق من جوع طعاما

والشَّجى سدَّ لهانا

ربما نجرع فى القيظ شرابا

والجوى يكوى حشانا

ربما نأخذ فى لغو حديثٍ

ما نراه قد عنانا ،

ربما نلبس للناس قناعا

ساترا عنهم أسانا

ربما جئتْ بنا أشواقنا

فكتمنا ما بنا ،

عمن سوانا،

ربما استنفد دمعًا شجونا

فانكفأنا نصطلى،

جمرًا كوانا

* * *

غير أنَّا يا حبيبى، مانسينا

وإلى لقياك تحدونا خطانا

ورؤانا

كلمات للذكرى

١

ما علينا....

اشرب الكأس ولا تُبق ثماله

ما علينا ،

يستوى حلو ومرٌّ

* * *

وافترض أنا رفضنا شربها

هل يبالى رفضنا ، دهر يمر ؟

هوَّن المر علينا أننا

قد جرعناه طويلا،

قطرة فى إثر قطره،

ومضى الدهر علينا لاهيا،

غافلا، لم يلق نظره

فلنُسغْ من كأسنا هذى الثماله

يستوى حلو ومر....

* * *

طال مسرانا ولم تبق ذُباله ،

ما علينا ،

يستوى ليل وفجر

* * *

عبثا ترجو شعاعا من ضياءْ

ينسخ الظلمة من ليل بهيمْ

غاب عنا نجمنا ذات مساءْ

وتعللنا برؤيا فى المنامْ

ومضى عامٌ، وعامٌ إثر عامْ

ما مللنا،

إنما مل السراب

فتوارى يائسا منا، وذاب

في سراديب غمام وضباب

وخبا ما كان من وهم عقيمْ

* * *

وافترض أنا شكونا أو دعونا

هل يبالي التيه شكوى أو دعاءْ

أو يرى فينا، سوى بعض هشيمْ؟

ضل مسرانا ولا ضوء ذباله

ما علينا ،

يستوي ليل وفجرُ

٢

لن ترى في اليم مرسى

غير وهم وضلاله

ما علينا ،

يستوي برٌّ وبحر

* * *

أي مرسى لغريب

زاده يأس وقهر ؟

كلما نادى أجيب

غيب الملاح قبر

ليس يرجى أن يئوب،

فإلى أين المفرُّ؟

تاه فى اليم الطريق

أينما وليت واجهت الضياعْ

صارع الأمواج ،

ما جدوى الصراعْ ؟

مزَّقَ النوءُ الشراعْ

وهوى المجداف فى قاع سحيقْ

وافترض أنا التمسنا ؛

من دمار ، أى مخبأ ،

فيم مسرانا بليل

غاب فيه كل مرفا

واستوى بحر وبر

واستوى مدٌّ وجزرُ

٣

كل دنياك ضياع واغتراب

واكتئاب ، وملاله

ما علينا

يستوى رفض وصبر

* * *

عاتب الأقدارُ ،

ما جدوى العتابْ ،

وأمانينا طامٌ، ورفات وتراب ؟

يستوى نفع وضرٌّ

* * *

وافترضْ أنا هربنا ،

من جنون وخبالْ

هل لدى العقل جواب،

عن سؤال، وسؤال، وسؤال ؟

هل درى أين المفرٌّ ؟

أو أرى فى اليم مرسى،

غير وهم وضلاله؟

فاسر فى التيه فلا ضوء ذباله
يستوى ليل وفجر
واشرب الكأس ولا تبق ثمالة
يستوى حلو ومرٌّ....

عود على بدء

كلما قلنا: برئنا،

من جراح القهر باليأس العقيم

واسترحنا ،

واستوى خير وشرٌّ

واستوى رفض وصبر

حوَّمت مصر على أشباحنا

تنبش الأنقاض عن جرح الهشيم

أحيت الهامد من أشجاننا

واستعرتْ، موغلات فى الصميم،

وكأنا ما يئسنا،

وانطوينا، وانتهينا

كلما قلنا : اكتفينا ،

بالذى قد كان ،

من وهم السرابْ

ومع التيه سرينا .

فى كهوف من ظلام وضباب

واستوى ليل وفر،

واستوى أمن وذعر،

* * *

عادت الروح فشدتنا إليها

ابوثاق، من حنين وولاءْ

وأتانا صوتُها عبر الخواءْ،

ملؤه شجو، ولوم وعتابْ ،

فاشرأبتْ نحوها أرواُحنا

وكانا ما اغترينا،

وانسحبنا، وانتهينا .

كلما قلنا : فرغنا .

من معاناة جنون وصراعْ

وأكاذيب الأمانى،

ودعاءٍ لا يُجابْ

وتمزقنا حطاما

إثر ما ولى وضاعْ،

وغفونا، أو غفت أشلاؤنا

بأكف الموج، فى طى العبابْ

واستوى بحر وبرٌّ

واستوى مد وجزر

* * *

ح من عمق الدياجى طيفها

يجمع الأشلاء من يم الضياعْ

وكأنّا ما انحطمنا ،

وانسحقنا ، وانتهينا .

* * *

كلما قلنا، جرعنا

كأسنا، لم نبق قطره

وأسغنا كل ما سيط بها

من نقيع السم، من صاب وحنظلْ

وتداوينا منها بها،

عللاً نجرعها بعد نهلْ

واستوى صحوٌ وسُكر

واستوى حلو ومر

خايلتنا فى دياجير الغلسْ

برؤى النبع الإلهى المقدس

وبيمناها تراءت كأسُها

ذوب نور ونقاء،

ورحيق لم يُدنسْ

وبها طافت على أبنائها

فى ثرى سينا، على شط القناة

وسقتهم جرعة من ترياقها

عوذتهم برُقاها الطيبات

أن يسيغوا ما أسغنا من قذى

أو يطيقوا ما أطقنا من عذابْ

جددت فيهم خلايا خصبها

وراتْ سحر صباها والشبابْ

وكأنا ما هرِمنا،

وعقمنا، وانتهينا

فهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

لا أزال أكتب من بعيد..

مطلة من وقفتى على الجسر، على آثار خطاى قبل أن ألقاه. إذ أغذ السير فوق دربى، عبر المفاوز الحرجة والمنحنيات الخطرة، فى طريق تائه المعالم، خابى المنارات، بغير زاد إلا الهواجس والمخاوف والظنون.

وبغير دليل إلا اليقين بأننى أسير موجهة بمشيئة عليا، اصطفتنى لتجربة صعبة تمتحن بها طاقتى على الصمود والاحتمال، وتبلو مدى استعدادى لاجتلاء السر المحجب، المضنون به على غير أهله.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774216431



6 221149 018860

السعر ١٠ جنيهات